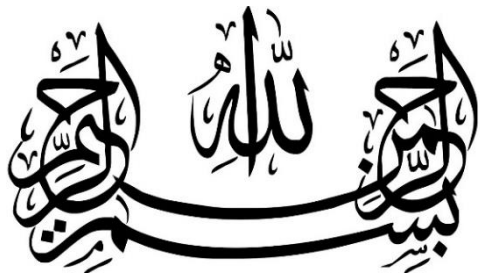

الأصدق لهجـــة

روايــة

حميد الحريـــــــزي

دار الشويكي للطباعة و النشر

الأصدق لهجــة

دار الشويكي للطباعة و النشر

حميد الحريزي

الطبعة الاولى ٢٠٢٥

الكمية ١٠٠٠ نسخة

عدد الصفحات:٢٠٠

الترقيم الدولي: ٧-٦١-٨٠٢٠-٦٢٢-٩٧٨

رقم الاتصال: ٠٩٣٦٨٩٩٣٦٩

شادگان (الفلاحيه) – ايران

جميع الحقوق محفوظة للكاتب

(والله لوددتُ أنّ الله عزّ وجل خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكل من ثمرها) الغفاري

فهرس المحتوى

الفصل الأول انبثاق الفجر ٩

الفصل الثـــــــاني مع الحبيب ٣٧

الفصل الثـــــــالث النصر المبين ٥٩

الفصل الرابـــــع العُـــــروج ٧٥

الفصل الخامـــــــس محطّة جديدة ٩٩

الفصل الســــــادس الثورة في الأفق ١٠٧

الفصل الســــــابع المواجهة .. المنفى ١٢٩

الفصل الثامن إيثاري أم اشتراكي؟ ١٤٥

الفصل التاسع رفيق الدرب ١٦١

الفصل العاشر المحطة الأخيرة ١٨١

المصادر والمراجع ١٩٥

الفصل الأول

انبثاق الفجر

صفير ريح مكفهرة محملة بغبار الصحراء، تقتحم أبواب خيمة الغفاري، أصوات غربان تحلق فوق فضاء الدار، حشد من القنافذ تتسلل الى الباحة، يغطي الليل بجناحة الفضاء، عيون الغفاري تزداد ذبولاً، شفاف مختلجة تزداد اصفراراً، تزحف الحيرة ومظاهرالترقب على محيا أم ذر، تأخذ الدموع لها مساراً على اخاديد وجنتيها السمراوتين، جبين الغفاري يرسل ومضات من نور، يرقب علامات الرهبة والخوف في عيون زوجه، التي تزداد التصاقاً بجسده، للاحتماء من هجوم وحش يهدد أهل الدار، يزداد نعيب الغربان، تنطفيء بعض نجوم السماء، الغفاري يهمهم بآيات من الذكر الحكيم، أم ذر بين حين وآخر تمسح جبينه الذي أخذ يتفصد عرقاً، الغفاري يهدئ من روعها، يذكرها: إنَّ الله معنا. إن الله معنا فلا تخشي شيئاً, وإنَّه يزداد شوقاً للقاء حبيبه محمد رسول الله، يصاب صوته بالوهن، تصاب يديه بالوهن، هذه السواعد التي كانت كالفولاذ في غزواته وقطع الطرق، هذه الأكف الذي حملت السيف وقارعت أهل الكفر في غزوات الإيمان ونشرالرسالة، ها قد حلّ بها الضعف والوهن وبدأت دماء عروقها تبرد وتذبل، كما تذبل أغصان شجرة أصابها العطش ..

يغط الغفاري في إغفاءة كأنها فاصل بين الحياة والموت، يستعرض شريط حياته وذكرياته، يستحضر وجه والده ووالدته الغفارية الصبور، شقيقه المخلص أُنَيْس.. تشرق أساريره كلما تذكّر لقاءاته بخليله رسول

الله وأحاديثه معه، يستذكر كيف كان يسخر ممن كانوا يعبدون الأصنام، وينذرون النذور للحجارة وينحرون لها القرابين. ينتظرون منها أن ترسل لهم مطراً، وأن ترزق أحدهم ولداً، وأن تُشفي المريض من مرضه، والعبد تحرره من عبوديته، والتاجر تحفظ تجارته، والشاعر تغنّي قريحته، والحبيبة توافي الحبيب، والبعيد يصبح قريب ..

يظهر أمام ناظريه شاب لم يتعرفه خلال حياته كلها، شاب يبدو أنه ليس من عصره، تبدو عليه علامات الحكمة والوقار، يتحدث بلسانهم ولكنه لا يتزيا بزيهم، يبدو إنَّ له رغبة للحوار وتبادل الحديث، مما أثار استغراب الغفاري، فبادر الى سؤاله:

ـ من أنت يا أخ العرب؟ ومن أتى بك الى هذه الأرض القفراء؟

هلّا عرفتني بشخصكم؟ فلم يسبق لي إنْ التقيتكم.

أهلاً وسهلاً بك ضيفاً عزيزاً على الرغم من كوني لا أعرف كيف دخلتَ الدار؟ وكيف قادكَ إلينا المسار؟

معذرة إن لم تقدم لكم أم ذر ضيافة فنحن لا نمتلك شيئاً لكنّا شاركناك فيه.

ـ هوّن عليك أخي وسيدي أيُّها الصحابي الجليل، فأم ذر لم ولن تراني كما تراني أنت الآن!

تبدو علامات التعجب والدهشة على وجه أبي ذر، وترتسم على محياه علامات الأستفهام: فمن هذا الرجل؟

هل هو مَلك من ملائكة السماء؟

هل هو مَلك الموت جاء ليقبض روحي؟ .. فربما جاء على هيئة شاب وسيم..

أم هو رجل مسافر ساقته إلينا الطرق؟

ـ أهلا بمَلك السماء، وأهلا بمَلك الموت فالموت حق، ولكن يا لبؤسك يا جندب إنْ كان الرجل ضيف حلّ بدياري، وأنا وعائلتي أعيش في شح قاتل، فماذا نقدم له؟ .. آه ثم آه.

أدركتُ هذه الحيرة، وهذا التساؤل الذي بان على قسمات وجه الغفاري، فبادرته مخاطبا إياه:

أوليس أنت الذي وصفه رسول الله: أبو ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

وها أنت يا سيدي تعيش في هذه الصحراء المغبّرة وحدك، وها أنت يا سيدي تكاد تموت وحدك، وقد كرمك الله أن تُبعث وحدك..

فإن أبعدك السلاطين والحكّام وحاولوا محو ذكرك، وطمس فكرك، وخنق صوتك المنادي بالحق والعدل والمساواة، فإن التاريخ لم يغفلك، وقد خلّد سيرتك بحروف من نور، ولا أقول بحروف من ذهب فأنت لا تحب الذهب، وأنت في كل العصور قبلة للزهاد ومثالاً للثوار

ضد الظلم والقهر، وناراً حامية تصلي وجوه المستغلين وكانزي الذهب والفضة، والمستأثرين بالسلطة والمال فنلت بإستحقاق لقب محامي الفقراء ..

ـ جزاك الله يا أخي خير الجزاء، وعزّة ربي وجلاله لم أكن أرتجي بكل ما قمت به سوى رضى الله عز وجل، وتمثل سيرة وقول رسوله المصطفى، وإمام العدل علي بن أبي طالب، فما طمعت بثروة ولا منصب مذ أطلقت صرختي بوجه أهل الكفر من طواغيت قريش: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

أضاء جبين الغفاري بنورالأيمان، والثقة بالذات، وأسرى الحديث في عروقه شيئاً من حرارة الحياة، فتوجه لي قائلاً:-

ـ لقد استرسلنا في الحديث يا أخي الكريم ولكنك لم تعرفني بشخصيتك ؟

ومن أي عصر أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وماذا تريد حفظكم الله ؟

- يا سيدي أنا (زمن) أتيتك من عصر يبعد مئات السنين من عصرك وزمنك الذي أنت فيه، فأنا من أهل القرن الخامس عشر الهجري، وأنا شاهد كل زمان، وحاضر في كل مكان، أنا (التاريخ)، وأنت من أهل بداية القرن الهجري الأول، ومن أرسلني إليك هو ضميرالبشرية الحي الذي يبحث عن الحقيقة ولا يمكن أن ينسى من ضحى بحياته ورفع راية

العدالة والمساواة من أجل رفاه الإنسان وصيانة كرامته .. كل ما أردته هو أن أسمع منكم تفاصيل حياتكم، وأستنير بنور إيمانكم ونور حكمتكم، وأن أشم أنفاسكم النقية، وأتأمل إرادتكم القوية وزهدكم الذي هو زهد الأنبياء، وثباتكم الذي هو ثبات الشجعان العظماء ..

(زمن) يسترق السمع مدورا نظره في الصحراء الممتدة على كل الجهات ، فلايسمع هسيس رياح، ولارغاء جمل، ولا حتى صوت نهيق حمار، ولاثغاء شاة أو ماعز، إنَّها أرض قفر، فلاغرابة إذن أن يكون الغفاري وزوجه بهذا الحال المزري...

تدارك نفسه وسهوه، وتأمله لما يحيط بالغفاري من ظروف صعبة، فالتفت الى الغفاري قائلاً: ولو سألتني إن كنت شاهد كل زمان فما بالك تسألني يا (زمن)؟

وأرجو أن لا يلومني أحد على هذا السؤال، وما سيليه، فأمة العرب، عرب الجزيرة، لم تكن مهتمة بتوثيق الأحداث كتابة إلا ما ندر، كأمة بدائية غير متمدنة، فكانت كما تعلم أغلب ثقافتها شفاهية، تعتمد النقل الشفاهي، فيجري على مرّ الزمن تحويرها وتدويرها، وكل يرويها حسب هواه، فيبدو التاريخ تواريخ ويبدو الحدث أحداث، وكما ترون حتى ولادة ووفاة رموز كبيرة وشهيرة تجد أكثر من تاريخ لولادته ووفاته، حتى القرآن كتاب الله كُتب بعدد من النسخ قبل أنْ يوحدها عثمان في نسخة واحدة وحيدة كما نقلت المدونات لنا ذلك، فلا تلوموني وأنا الزمن التاريخ إني لا أستطيع أن أروي الاحداث بثقة عالية بصحتها ..

ـ صدقت يا أخ الزمان، ولكني أراك شاباً تحمل حكمة الكهول، فكيف ذلك؟

- نعم يا سيدي الغفاري، فالزمن لايشيب فهو شباب على مر العصور.
- نعم صدقت والآن، تفضل ماذا تريد؟

ـ رحمك الله يا صادق اللهجة .. أأمل أنْ يتسع صدرك لفضولي، وتشرح لي كيف قضيت سنوات عمرك؟

مدّ الغفاري يده وطوّق صدغيه وكأنه يعتصرها، لتزيل غبار الزمن عن ذكرياته التي كادت تطمرها عوادي الزمان وتحولات المكان، وما مر به من عسر وامتحان. استنشق الهواء بقوة ثم استدار نحوي قائلاً، وهو يغطي عينيه بكفه لحمايتها من ذرات الرمال التي تذروها الرياح، لاتصدها خيمة مهلهلة، يضطجع داخلها الغفاري...

ـ والله يا أخي (زمن) أن ما يشرح صدري ويسر خاطري هو الحديث عن مسيرة حبيبي رسول الله، وحياة وتضحيات صحبه الكرام، ممن ضحّوا بأموالهم وأرواحهم، وأحبتهم من أجل نشر وثبات وانتصار راية العدل، راية الإسلام، وتحقيق إرادة الله وبعون منه على الأرض، ولا أمثل أنا حتى قطرة من بحر جهادهم وتضحياتهم .. وعلى الرغم من ذلك وباعتباركم ضيفي اليوم فسأجيبكم على أسئلتكم ما أسعفتني به الذاكرة، والذي أراه زاد قليل إدخرناه ليوم المعاد، وجهداً ضئيل في

سبيل الله ودينه القويم، ونصرة وتصديق نبيه الكريم حبيبي الرسول محمد.

- شكراً لكم سيدي الجليل، عافاك الله وشافاك، وعزّز بعونه منه قواك. بودي أولاً أن تصف لي طفولتكم وبواكير الشباب ..

يمسح الغفاري العرق من على جبهته الوضّاءة، ويعتصر صدغيه بعد إبعاد خصلات شعره الأشيب المنسدل عن عينيه، وكأنه يحاول تركيز فكره واستحضار وتنشيط ذاكرته خلال طفولته وشبابه:

- يا أخي (زمن) حفظكم الله، أنا أعيش ضمن عائلة بدوية تعيش الكفاف حالها حال أغلب أفراد قبيلة غفار، وسط صحراء غبراء، شحيحة مواردها، يعيشون على ما يحصلون عليه من رعي الإبل والأغنام، اعتماداً على نمو العشب والكلأ، واعتماداً على ما تجود به السماء من المطر، ولا أدري هل تعلم أنّ قبيلة غفار تقع على طريق القوافل التجارية لقريش وغير قريش من قبائل العرب، وكانت القبيلة وفرسانها يقومون كغيرهم من القبائل بغزو القبائل الأخرى، وكذلك ممارسة عمليات قطع الطرق، وسلب ونهب، حيث يسلك التجارهذه الطرق. ولا يفوتني أن أذكر هنا ما حدث لي عند مقابلة الرسول لأول مرة قبل إعلان الرسالة في مكة فقد سألني الرسول: ممن أنت؟ ، فقلت من بني غفار. فعجب النبي وقال: إنَّهم يقطعون الطريق. وجعل النبي يرفع بصره ويصوبه فيَّ تعجباً من ذلك، لما كان يعلم منهم ثم قال: (إنَّ الله يهدي من يشاء) ..

لم تكن حياتي وحياة غيري هينة أو ميسّرة ورغيدة، أمي (رملة بنت الوقيعة) الغفارية. كانت رحيمة عطوفة تسهر على رعايتي ورعاية شقيقي (أنيس) ..

من طباعي، وأنا صغير أعيش جدب الصحراء وبدائية ألعابها ووسائل لهوها .. ولا يمكن أن يخطر ببالك أخي (زمن) أنَّ طفولتنا في زماننا هذا تشبه حياة أطفالكم في القرن الخامس عشر الهجري كما ذكرت، إذ لا يمكنني أن أتصور طبيعة حياة أطفال عصركم هذا.

كنت أفضل العزلة في شبابي، ودوام التأمل والتفكر بما يحيط بي وبعائلتي وأبناء قومي من غفار، وحال جيراننا من قبيلة أسلم. "وقد صليت قبل أن ألقى رسول الله بثلاث سنين. أتوجه حيث يوجهني ربي أصلي عشاء حتى إذا كان أخر الليل ألقيت كأني خفاء حتى تعلوني الشمس."

في زمن كان فيه المتألهون يُعدّون على الأصابع وهم من حكماء القوم وأكثرهم فطنة أمثال زيد بن عمرو وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة.

وقد تعرضت نتيجة لهذه الرؤية، وهذا السلوك الى الكثير من المضايقات، ووضع أبناء قومي عليَّ العديد من علامات التساؤل والإستفهام، لأني كنت خارج هذاالقطيع، وسخريتي الدائمة من آلهتهم ومما يعبدون ويقدسون ..

كانت أم ذر تراقب حركة شفاه أبي ذر وربما تسمع بعض همهماته، مستغربة مع من يتحدث الغفاري، تتحسّس حرارته من خلال لمس جبينه، فربما كان يهذي من شدّة الحُمّى، ولكن حرارة جسمه لم تكن بالدرجة التي تجعله يهذي. أما هو فيرقب استغرابها، ولكنه يستمر في أجابته قائلاً:

ـ أما شبابي أيها العزيز فإنما هي حياة كل شاب عربي بدوي في الجزيرة العربية، السعي والمثابرة بالتدريب لأجادة أستخدام السيف والرمح ورمي السهام، ليكون قادراً على الدفاع عن نفسه وعن قبيلته وعن حماه، وليكون فارساً بارعاً في الغزو وفي القدرة على قطع الطرق والتسليب، فشباب ورجال القبيلة هم في حالة إستنفار وحالة حرب دائمة، فإما أن يغزون، أو يصدون غزواً من قبل قبائل أخرى ..

جسدي في الشباب قوي البنيان، طويلاً مفتول العضلات، أميل للمبارزة والقتال، أُقارع القوي وأنتصر للضعيف. أما في كهولتي صرتُ رجلاً أدماً طويلاً نحيفاً، أبيض الشعر، كث اللحية كما تراني الآن .. مع تحول الصفات الجسمية خلال مرور السنين..

استهواني الغزو مع عصبة من أقراني من أبناء قومي، أو بمفردي أقوم بالتصدي لسالكي الطريق لأسلبهم ما يملكون من مال وجياد وسلاح، وكنت من المنتصرين في أغلب الأحيان، وطالما غامرت بحياتي حينما أغزو قبيلة أخرى بمفردي لأنهب منها ما أستطيع من الأبل والمواشي والمال والغلة والسلاح، اسأل الله تعالى أن يغفر لي ذنوبي عما سلف...

قلت له تأييداً وتعضيداً لحديثه:

ـ قرأنا في بعض الروايات عنك ذلك. فأنت تصيب الطريق، وكنت شجاعاً بمفردك تقطع الطريق وتغير على الصرم في عماية الصبح على ظهر فرسك أو على قدميك كأنك السبع فتطرق الحي وتأخذ ما تأخذ .. ولكن قل لي: هل اكتنزتم ثروة مالية أو حيوانية من خلال حملاتكم في الغزو والسلب؟

ـ قد تستغرب إذا قلت لحضرتكم أني لم أدخر لنفسي أي شيء مما أحصله من تلك الغزوات، إذ أقوم بتوزيع كل ما أحصل عليه، على فقراء وضعفاء قومي، أو أمنحه لمن يقصدني بحاجة .. فلم يكن دافع الغزو، وقطع الطريق بالنسبة لي امتلاك الثروة والمال، بل العكس هو الصحيح، إذ كنت أرفض هذا التمايز الكبير في امتلاك الثروات، وفرة باذخة عند البعض، وشح حد البؤس عند الأغلبية، مما يوفر لضميري الراحة وأنا استولي على هذه الأموال من مغتصبيها، أو كانزيها والمستحوذين عليها، لأوزعها على مستحقيها ..

علامات التعجب والأستفهام ترتسم على محيا (زمن)، مستذكراً ما يعلمه حول ما كان يقوم به أمير الصعاليك (عروة بن الورد) من قطع الطرقات وسلب الثروات ومن ثم توزيعها على الفقراء، وهو يحاول أن يجد تفسيرا لهذا السلوك، فالمعتاد من يقوم بالغزو ويغامر بحياته من أجل الحصول على المغانم الهدف منه الثراء والأمتلاك الفردي، كما هو سائد

في الزمن الحديث من نهب ثروات الشعوب من أجل بناء القصور والفلل الفارهة، والسيارات وحتى الطائرات ،واليخوت الفخمة.

فما هو دافع الغفاري للمغامرة بروحه من أجل مال يوزعه على الآخرين من دون مقابل، ومن دون أن يحتفظ لنفسه بشيء منه ؟

يتواصل زمان مع (ك) عالم النفس والإجتماع في الزمن الحديث ليحصل على تفسير لسلوك الغفاري هذا، فهذا الرجل إيثاري زمن الجاهيلة، وإيثاري بعد إسلامه، بمعنى أنَّه تميز بهذا السلوك في الزهد والكرم وعدم إكتناز المال حتى قبل أنْ يدخل الإسلام ..

فيأتيه الجواب من العالم (ك) :

ـ أولاً إنَّ من أهم طباع العرب هو الكرم، فالفارس العربي البدوي يسلبك مالك ومواشيك، وإبلك حينما يغزوك، ولكنه ينحر لك الذبائح حينما تكون ضيفاً عليه، ويكرمك بأريحية كبيرة عندما تطلب منه. وكانوا يشعلون المشاعل ليلاً ليستدل اليهم الضيف وعابرالسبيل .. وكان بعضهم يرسل غلامه ليجلب له ضيفاً، فإن أصاب كان يمنحه حريته ..

أما الهدف من الغزو فيختلف الأفراد في دوافعهم لممارستها، فالبعض يسعى لزيادة الثروة وسلب من يملك ما تحت يده ليكون له كما هو سائد في عصرنا الراهن، أما حالة الغفاري فهو يمتلك حساسية كبيرة منذ صغره حول من يملكون المال والثروة ويعيشون حياة البذخ والرفاه، في حين يعيش الأغلبية حياة البؤس والفقر والحرمان، وهذا مما لا يقرّه

ضميره الحي الميّال نحو المساواة بين البشر، مما يستوجب أخذ المال منهم بالقوة عنوة لأنهم لايعطونه إختياراً، وهذا هو سلوك الكثير من السرّاق حتى في عالمنا وعصرنا الحالي، والسارق هو إنسان جريء متجاوز ويمتلك قدراً غير هيّن من الحنكة والذكاء، يستشعر الظلم والحرمان، فيتمرد عليه بشكل فردي فيسلك سلوك السرقة والسطو لتحقيق العدل وكما يذكر الفلكلور والموروث الشعبي لشخص (محمد حرامي) الذي كان يقوم بسرقة أموال الأغنياء ليلاً، ليقوم بتوزيعها على المحتاجين والفقراء نهاراً، لا يماثل سلوك المناضل الثوري الذي يسعى من خلال التغيير الثوري لبنية المجتمع لتحقيق العدالة والرفاه للجميع بأساليب مشروعة، كإقامة نظام عادل يسعى للتوزيع العادل للثروة ويحد من نفوذ من يسعى للإستئثار بالثروة لنفسه وحرمان غيره منها فغالبا ما يكون ثراء البعض على حساب إفقار وتجويع الأغلبية وكما قال الامام علي: (ما رأيت من ثروة موفورة، إلا وبجانبها حق مضيّع).

فكان أسلوب الغفاري لتحقيق العدل في ما قبل الأسلام هو الغزو والسلب من المالك للثروة ومن ثم إعطائها للفقير والمحروم، أما بعد أن أسلم وقبل أن يلتحق بالرسول في المدينة، فقد أخذ يغير على قوافل الكفار ويأخذ ما يأخذ ثم يخاطبهم قائلاً: "لا أرد عليكم منها شيئاً. حتى تشهدوا أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله".أما حينما التحق بالرسول وأقام في المدينة فقد أتبع تعاليم ماجاء في القرآن والسُنّة في

تحقيق العدل وتحريمه للكنز والإثراء على حساب الآخرين من خلال احتجاجه بآية العفو، وآية الكنز ليحاسب الكانز للمال والمستأثر بالثروة سواء كان حاكم أو محكوم ..

وبعد أن سمع (زمن) لرأي (كاف) شكره لأيضاحه، وعاد الى توازنه، وتوارت من أمام عينيه علامات التعجب والأستفهام والحيرة. ولا غرابة إذاً في سلوك الغفاري هذا الرجل الفارس الجريء صاحب الضمير الحي والمؤمن بالله حتى قبل إسلامه، والمؤمن والداعي بالتوزيع العادل للثروة ..

شكره (زمن) على إيضاحه الذي فسّر له سلوكية الغفاري وغيره من الناس ذوي الإحساس الإنساني والميل نحو العدالة والمساواة.

ـ سيدي العزيز من خلال سيرتكم يتبين أنَّك لم تعبد الأصنام وأنك من الموحدين حتى قبل إعلان الإسلام، حالك كحال قدوتك ومثلك في الإسلام على بن أبي طالب الذي كرّم الله وجه فلم يسجد لصنم في حياته .. فكيف أهتديت الى ذلك وخالفت أبناء قومك؟ وأنت القائل كما ذكرت لعبد الله بن الصامت: لقد صليتُ يا أبن أخي قبل أنْ ألقى رسول الله.

سحب الغفاري نفساً عميقاً متجاوزاً حشرجة في البلعوم، وما يشعر به من ضيق في الصدر، ووهن في الجسم، متململاً في رقدته، وقد لاحظت ذلك أم ذر، ولكنها لم تدرك سبب ومعنى حركاته هذه، فاقتربت منه

أكثر لتسأله عما يعانيه، أو هو يطلب شيئاً، لأنها وكما ذكرنا لم تر محدثه (زمن) ..

شكرها أبو ذر لأهتمامها مطمناً إياها بأنَّه لا يريد شيئاً ..

بعد لحظة صمت، وتفكر أعادته إلى فترات تأمله وتشتت فكره بين الشرك والتوحيد، بعدها التفت إلى زمن قائلاً:

يا أخي (زمن) ، إنَّ هذه الفترة كانت من أكثر فترات حياتي إرباكاً، مشتت الفكر، بين حالتين، بين حالة الشرك، وحالة التوحيد، بين السير مع الجمع أو الخروج عن السرب، وغالباً ما كنت أعيش عزلة عن الناس للتفكر وتدبر العالم والخلق، تفكر وتأمل السماء والنجوم والقمر، والجبال والوديان، والأنهار والبحار، وحتى خلق الدواب والجمال .. {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ *لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} هذا عالم المخلوقات المتنوع العجيب، من النملة الى البعير، ومن الحشائش القزمة الى النخلة العملاقة، من النهير الصغير الى البحر الواسع الكبير، خُلق الإنسان بين ذكر وأنثى، والتمايز في الألوان والأشكال، بين أسود كالفحم، وأبيض كالشحم، ووو .. كل هذا يحتاج الى تفكير وتدبير وتفسير لكل ذي عقل ..

"في أحد الأيام، أتيت يوما الى (نهم) أصب له لبناً، وأبتغي بها مرضاته، وهممت بالأنصراف، فحانت مني التفاتة عارضة لمعبودي، فما كان أشد

دهشتي إذ رأيت كلباً يشرب اللبن المقدّم للإله، والأله مغرق في البله والوجوم، لا يرى شيئاً، ولا يفعل شيئاً ليذود عن لبنه المقدس، وتريثت قليلاً أنظر مشدوهاً، فرأيت أدهى من ذلك وأمرْ، رأيت الكلب لا يكتفي بإختلاس قربة المعبود العاجز، بل يرفع رجله فيبول عليه!".

فيا ضيفي العزيز يا (زمن) هل هناك ذو لب وحكمة يمكن أن يقدس ويعبد هذه الأحجار التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً؟ ، كيف لإنسان عاقل أن يعبد ويسجد ويرتجي العون من شيء صنعه بيده؟ ، كيف يعبد الخالق المخلوق؟

لذلك تكونت لديَّ قناعة كبيرة بوجود خالق عظيم ومدبر قدير لهذا الكون، إنَّ مبدع السماء لا شك أكبر من السماء، وخالق الإنسان أعظم من الإنسان، وإنَّ خالق الكون العظيم متعال، وهو أحق بالعبادة من مناة، ومن اللات والعزى، ومن إساف ونائلة وسعد، بل هو أحق بالعبادة منهم أجمعين، فهو الخالق البديع، المصوّر القادر، وهي أحجار لا حول ولا سلطان لها.

فبعد ذلك أخذت أنفرد وأنعزل عن قومي وأهلي لأعبد الله وحده وقد تتبعني شقيقي (أنيس) فوجدني أتعبد الخالق الواحد الأحد، ووقتها سألني عما أعبد، فاخبرته بأني أعبد الله، فحاججني كيف أعبد إله لا أراه في حين أترك آلهة ماثلة أمامي، فرددت عليه إنْ لم أكن أراه فقد رأيت آياته في كل ما حولي، وأما هذه فهي أحجار لا حول ولا قوة لها، ثم دار الحديث حول آسف ونائلة، فقلت له": إنَّهما زانيان، إنفردا بنفسيهما

وعملا الفاحشة في بيت الله الحرام، فمسخا الى حجر، وعندما طال المقام بهما أخذ بعض الناس يتعبدونهما ويقدسونهما، فهل أنت يا أنس تعبد الزناة ؟"

فأسقط فيما في يده من حجج، ولكنه حذرني من القوم إنْ علموا تنكري لآلهتهم. فأخبرته إنَّهم على ظلال ..

نبذتُ عبادة الأصنام، وآمنت بالتوحيد ووجود الله الخالق قبل ثلاث سنوات من ظهور الرسالة المحمدية، كنت واثق من حتمية ظهور من يبشر بوحدانية الله عزّ وجلّ ويسفه الأصنام. وما إنْ سمعت بخبر ظهور نبي يبشر بوحدانية الخالق حتى سارعت إليه ..

- أصابت الدهشة (زمن)، وهو يستمع الى حديث الغفاري، وكأنه يستمع الى فيلسوف، إلى شخص يمتلك ذكاء وفطنة غير طبيعة، تشبه حكمة الحكماء والفلاسفة .. حيث تميز بدقة الملاحظة، وإمكانية التحليل والتركيب، للظواهر ليخرج بقناعة معينة تستند على حيثيات موضوعية وعقلانية في إتخاذ القرار، فأبدى إعجابه بالغفاري وبادره بسؤال حول ما أنتهى له وطلب منه أن يحدثه بقصة لقائه بالرسول محمد وقصة أيمانه.

- والله يا أخي إنَّ هذه القصة هي من أقرب القصص الى روحي والتي أراها ولادة ثانية لي، لا بل هي الولادة الحقيقية لجندب بن جنادة الغفاري أبتدأت منذ اليوم الأول الأسلامي ...

أهتز جسد الغفاري وتغيرت معالم وجهه حينما أستعد للإجابة على سؤال (زمن)، مما أثار التساؤلات عن سبب هذه التغيرات لدى زوجه أم ذر، فطمأنها الغفاري على ما هو عليه.

ـ إهدئي يا أم ذر فأنت لا ترين ما أرى فلا تقلقي مما ترقبينه من حركات وسكنات أعيشها الآن، أما الموت فهو حق وهو وعد فلا خوف منه، بل الخوف مما سيلاقيه الإنسان ما بعد الموت، فمن خاف الله وعمل صالحاً يذهب مطمئناً مقبلاً على جنات النعيم.

صمت قليلاً ليسحب نفسه. وتوجه الى (زمن) ليجيبه على سؤاله:

ـ سمعت الناس تتداول خبر ظهور رجل من قريش يدّعي النبوة، ويدعو الى عبادة الله الواحد الأحد، فاستدعيت شقيقي أنيس، طلبت منه الذهاب الى مكة واستطلاع خبر هذا الرسول، وبالفعل ذهب، وشهد أحد مجالس الرسول وسط الناس يدعوهم الى نبذ الأصنام والأوثان وعبادة الله الواحد الأحد، قائلاً: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له) ، وأخذ الرسول يحاجج الناس ويثبت لهم عظمة الخالق، ويذكرهم بالموت والبعث، ولكنهم تفرقوا وانفضوا من حوله وكل يتهمه بالشعر أو السحر وما إليه، وبعد أن سمع أنيس ما سمع ورأى ما رأى، عاد الى غفار، شارحاً ما رآه وما سمعه إليّ، فبادرته بالسؤال: ما يقول الناس فيه؟

ـ يقولون إنَّه شاعر وساحر وكاهن .. وما هو بشاعر، فقد عرفت الشعر كله، وقد وضعت قوله على اقراء الشعر، فو الله ما يلتام. وما هو بساحر، فقد رأينا السحار وسحرهم، ونفثهم، وعقدهم. وما هو بكاهن، فقد رأينا الكهان، فما بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

ـ وهو ما يقول ؟

ـ والله إن لقوله لحلاوة، ولكني لا أذكر منه شيئاً.

ـ لم تشفني من الخبر، هل أنت كافي حتى أنطلق فأنظر ؟

ـ نعم وكن من أهله على حذر فإنَّهم قد شنفوا له وتجهموا.

كان (زمن) يستمع بكل جوارحه إلى حديث الغفاري، وأراد معرفة المزيد: نعم يا حبيبي يا أبا ذر أكمل جزاك الله خيراً، وماذا قررت بعد ذلك ؟

ـ وما تظنني فاعل وأنا أترقب هذا النبأ بشغف لا يوصف، فقد ركبت راحلتي وحملت مؤنتي، وتوجهت الى مكة، على طول الطريق وأنا اتخيل صور شتى عن الرسول، كيف هو؟ ومَن هو؟ كنت في غاية الشوق لكي أراه، وفي غاية الشوق لأستمع لما يقول، وإصغاء لما يدعو إليه، تشتبك الأسئلة في رأسي: كيف سأهتدي اليه؟ ومَن أسأل عنه وقد ناصبه قومه العداء؟ .. بيد أن ذلك لم يفت من عزيمتي للقائه

لأتطلع في وجهه وألمس ردائه، بعد أن بقيت ١٥ يوما في مكة لأحضى بلقاء رسول الله ..

جنّ عليَّ الليل وأنا جالس في ركن الكعبة، وقدغادر الجميع آيبين الى دورهم، وإذا بفتى يقترب مني، ويسألني: كأن الرجل غريب ؟

ـ فقلت بلى.

ـ قال لي تعال معي، ورافقته بالفعل، وعلمت انَّه علي بن أبي طالب. بت ليلتي في داره دون أنْ أتحدث معه حول ما أريد، وهو لم يسألني عن وجهتي وما سبب وجودي هنا، عند الصباح عدت الى ركن الكعبة وأخذت أترقب عسى أنْ أرى الرسول، أو أهتدي إليه بطريقة وأخرى، ولكن دون جدوى حتى جنّ الليل، فأتاني علي بن أبي طالب، وعلم أني لم أستدل على هدفي، فطلب مني أنْ ارافقه، ففعلت وقد بادرني بالسؤال: ما هي وجهتك يا رجل ؟ وماذا تبغي من وجودك هنا ؟

ـ إنْ كتمت ما أريد ساخبرك.

ـ فقال: تحدث وأنت في أمان.

ـ فقلت له: إني قاصد رسول الله وأريد من يهدني اليه.

ـ فقال: اذاً اتبعني ولكن إنْ شاهدتني قابلت الجدار بدعوى إصلاح نعلي، فتريث حتى نتجاوز من يتبعنا أو يراقبنا، حتى نصل مكمن رسول الله."

لاحظت إنَّ أبا ذر قد أصابه الأعياء، فطلبت منه أنْ يستريح قليلاً، ويطلب شربة ماء حتى يستطيع أنْ يكمل حديثه، استجاب لي وطلب من زوجه جرعة ماء، فأتته بما طلب، رفع رأسه بصعوبة واحتسى شربة الماء، ثم عاد الى رقدته، وأخذ قسطاً من الراحة وواصل حديثه معي، وسط دهشة زوجه.

نعم يا أخي (زمن) سأكمل لك القصة. التقيت برسول الله وبادرته بالتحية: السلام عليكم، ولم أكن أعلم أن هذا هو سلام الدين الجديد، فرأيت وجه رسول الله قد هشّ وبش وبان عليه السرور، وردّ على تحيتي: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ممن أنت يا رجل؟

ـ أنا جندب بن جنادة من غفار.

ودار بيني وبين الرسول حديث حول قبيلة غفار وحول ما أنا فيه، وكيف سمعت بدعوته ومن دلني عليه اليوم، وقد أجبت على كل ما سألني الرسول .. ثم بإدرته بالسؤال أن يعرض عليَّ الإسلام، فأجابني الرسول: شهادة دخولك إلى الإسلام أنْ تقول: أشهد أن لا إله الا الله، وأن محمداً رسول الله. فقلت:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد إنَّ محمداً رسول الله

ثم قال لي رسول الله:

ـ يا أباذر أكتم هذا الأمر، وأرجع الى بلدك، فاذا بلغك ظهورنا، فأقدم.

يا أخي (زمن) قبل أن ارى رسول الله محمد كانت الرهبة تملء قلبي وتهيمن على حواسي، كيف لا وهو من أختاره الله العلي الجليل ليكون رسوله للبشر، مرشدا هاديا منفذا لأمر الله وأرادته، ولكني حينما التقيته وجدته إنسانا كما نحن البشر، ولكن ما هيمن علي هو نور الصدق وملامح قوة العزيمة وعمق الايمان الذي يشع عبر كل كلمة ينطق بها وكل نظرة من نظراته ...

ما كادت الأرض تسعني وأنا أسمع هذا الكلام من رسول الله، ها أنت يا جندب قد أتاك الخبر اليقين حول الخالق الواحد الأحد، خالق السموات والأرض، فذهبت الحيرة، وتبخرت الطيرة. إنَّه رسول الله الصادق الأمين، وهل يخشى المخلوق من عرف الخالق؟

- كيف يخشى أن يصرّح بما آمن به من الحق؟

إنَّه والله يوم مولدي الحقيقي حينما أمسكت بالحقيقة، لابد لصوت الحق أنْ يكون عالياً مسموعاً لتتصاغر أمامه الأصنام، وتعبده الأنام، وهل مثل جندب مجندل الفرسان، ومقتحم ضياع العربان لينهب ويسلب ليحقق العدل ويطعم الجياع غير هيّاب للموت، يمكن أنْ يصمت ويسكت عن إشهار إسلامه، موحداً الله العظيم ومؤمناً بنبيه الكريم؟

فقلت للرسول: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد وقريش فيه وصحت بأعلى صوتي: يا معشرقريش إنَّي أشهد

أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ، فضربوني حد الموت، فأدركني العباس وأكب عليَّ، وأقبل عليهم موبخاً:

ـ ويلكم تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عني، فلما أنْ أصبحت الغد، رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فصنعوا بي مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس فأكب عليَّ وقال مثل مقالته بالأمس.

ابتهج (زمن) لصلابة وعنفوان الغفاري في ذلك الموقف، وهو يسجل أول مواجهة وصِدام مع قريش وجبروتها في أول يوم من إسلامه:

- ما أشجعك وما أصلب عودك وإرادتك أيها الغفاري الصلب، وأنت تدافع عن مبادئك وإيمانك وإسلامك أمام هؤلاء العُتاة الجبابرة؟

- يا أخي (زمن) كيف يخشى المخلوق من عرف الخالق؟ وكيف يسكت على الباطل من عرف الحق؟ وكيف يطمع في الدنيا الفانية من آمن بالآخرة الخالدة؟ فما أتفه حياة الإنسان حينما يعيش بلا قضية حق ولا مبدأ عدل يدافع عنه.

- حماك الله سيدي يا أبا ذر، أكمل لي يا سيدي هذه الحكاية المشوقة.

وفيما نحن كذلك في أخذ ورد، أمطرتنا رياح جافة بسيل من رمال يسفي العيون، ويعتم الرؤيا. يحرك الغفاري جسده، ويحاول أنْ يأخذ نفساً

عميقاً، ليسترد قواه لمواصلة الحديث، فيما زوجه أم ذر تراقبه بخوفٍ وحذرٍ وهي منشغلة بترقيع رداءٍ بالٍ ..

ـ بعد ما جرى لي من قريش وجهالهم، وتنفيذاً لأمر حبيبي الصادق الأمين وسيد الأنبياء والمرسلين، ودعتُ حبيبي رسول الله، وابن عمه علي بن أبي طالب، وتوجهت إلى قومي بني غفار ..

وما إنْ شرحت قصتي لأهل بيتي حتى أعلنت والدتي (رملة بنت الوقيعة) الغفارية إسلامها، ثم تبعها أخي أنيس.

وقد جمعتُ القبيلة بحضور شيخها (خفاف بن رحضة) الغفاري، وأخبرتهم بما جاء به رسول الله محمد من قول الحق والإيمان بالله الخالق الأحد وتسفيه الأصنام ومن آمن بها، ودعوته الى العدل والمساواة بين الناس، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لسيد على عبد إلا بالتقوى، وأنَّ الله وحده لاشريك له، وأنْ نبيه محمد عبده ورسوله،وأخذت أحدثهم حول صفات الرسول وغزارة علمه ومدى إيمانه برسالته وما عاناه من قومه من أذى، ولكنه لم ينثن ولم يحيد عن مبادئه والتبليغ برسالته، على الرغم مما قدموه له من المغريات، من مالٍ ومن سلطة، ولكنه أبى قبول كل تلك الإغراءات، وتحدى كل تهديداتهم وجبروتهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

ورأيت كيف كان الرسول وأهل بيته يعيشون حياة الزهد والكفاف على الرغم من كونهم من وجهاء بني هاشم ومن أسياد قريش ..

يا أخي (زمن) كانت استجابة بني غفار تشرح الصدر وتبهج القلب، فقد آمن شيخ القبيلة، ونصف قبيلة غفار، ومن قبيلة أسلم أيضاً أسلموا ونطقوا بالشهادتين. عشت أجمل أيامي، إنها أيام انتشار نور الله على غفار وما حولها، إنَّه صوت الحق، صوت الفقراء والمقهورين يدوّي في أرض غفار كما في مكة والمدينة، دأبتُ الليل والنهار أسعى لتثبيت نور الإيمان في قلوب الرجال والنساء، الكبار والصغار، ليصدحوا: بلا إله إلا الله محمد رسول الله ...

وعندها قررت أنْ ألتحق برسول الله، لأرتشف من علمه وأتعلم من حكمته، وأقوم بخدمته في المدينة لأكون قريباً منه بعد أن أمضيت سبعة عشرعاماً بين أبناء قومي غفار وبني أسلم بعد أن تيقنت أنَّ نور الإيمان أضاء قلوبهم .

ـيا سيدي الغفاري، أنت الآن في اللحظات الأخيرة لمغادرة الحياة الدنيا لتكون في ذمة الرب الرحيم ونبيه الكريم وعباده الصالحين، سأستودعك الله، وأعود لتحفيز ذاكرتي حول رحلتكم الجهادية الخالدة وأنت تحمل لواء نشر راية الإسلام والإيمان النقي ومقاومة طمع الحكام وكل من استأثر بالسلطة والمال خلافاً لما جاء به كتاب الله، وما قاله وفعله وأمر به رسول الله ووصيّه من بعده ابنّ عمه علي بن أبي طالب ..

وبالفعل، عدت إلى تقليب واعتصارذاكرتي، وتنقية وفلترة الأقوال والشهادات حول حياة الغفاري الزاخرة بالتضحية والفداء والزهد، لأرى

ما هو حقيقي وما هو مزوّر وموضوع، ومكتوب على هوى البعض ووفق ما يشتهون، عسى أن ننصف هذا الرجل العظيم الذي ظلم كثيراً، حتى من قبل من ضحّى وكافح من أجلهم، فقلما يُذكر من على المنابر، لا يُحتفى بمولده الذي بقي مختلفاً فيه، ولا يُعزّى بوفاته، ولا تُقام له مجاس الإستذكار، فما زال يعيش الغربة ...

بينما التفت هو إلى زوجه وهي تبكي بحرقة وألم، سائلاً إياها عما يبكيها ؟

تواريت أنا من أمام عينيه وهو يعاني من سكرات الموت ...

الفصل الثـــاني
مع الحبيب

واضب أبو ذر الغفاري على التنوير والإرشاد في بني قومه من غفار وبني أسلم، وواضب على المزيد من التأمل والتفكر في ما سمعه من رسول الله من آيات القرآن المكية، يشعر بالفخر والسرور لمقابلته رسول الحق الصادق الأمين، ودعوته لنشرالعدل والمساواة بين البشر، وقد كان يترقب ويتابع أخبارسول الله وصحبه في مكة وما تفعله قريش وأحلافهم ضدهم، فعلم ممن جاء من مكة، أنَّ قريش عملت صحيفة تتضمن مقاطعة الرسول وصحبه، فمنعت عليهم التجارة، والتواصل معهم، كما منعت التناكح معهم، وقد علقت الصحيفة في مكة، وبقدرة الله، بعد حين عملت الأرضة عملها في الصحيفة، فأتت على كل ما كتب فيها ما عدا اسم الله، وقد أتى من يخبر قريش بذلك، وما أنْ تبينوا حقيقة الخبر حتى أصابهم الذهول: إنَّه لأمر عجب. فدب الخوف في قلوبهم، فسمحوا للنبي وصحبه بمغادرة مكان عزلهم، وما كان من صحب رسول الله إلا أنْ يزدادوا إيماناً وثباتاً في التمسك بدينهم والإلتفاف حول نبيهم ..

دخلت البهجة في قلب الغفاري، وأصبح في غاية السرور وهو يسمع هذه الأخبارمن الزائر ومن القوافل القادمة من مكة وتمر بطريقها عليهم ..

كان (خفاف) يؤم غفار في الصلاة، ثم يتفرغ للجلوس ليتبادل الحديث مع أبي ذر حول أحوال المسلمين في غفار وأسلم وفي مكة: إني لأعجب كيف يلقى رسول الله كل هذا العنت من أهله وعشيرته ؟

ـ لا عجب في ذلك يا شيخنا، فزمّار الحي لايطرب!

قال خفاف لأبي ذر يستفسر عن أحوال النبي وصحبه في مكة، فأخبره الغفاري إنَّ قريش أمعنت في تعذيب وأذى صحب رسول الله من المسلمين من المستضعفين، فقرر جمع منهم الهجرة الى الحبشة ليكونوا تحت رعاية وحماية ملكها النجاشي المعروف بالحكمة والعدل والعطف على أهل الكتاب.

ـ وكيف أستقبلهم وتعامل معهم النجاشي ؟

ـ أحسن أستقبالهم وأكرمهم وأجلسهم خيرمجلس، فشعروا بالأمان والطمأنينة يمارسون شعائرهم وعبادتهم بحرية كاملة.

ـ وما هي ردة فعل قريش على هذا الحال وحسن الإستقبال ؟

ـ أوفدت قريش جماعة منها يحملون الهدايا الثمينة إلى النجاشي، طالبين منه رد المسلمين الذين لجأوا إليه اليهم. فرفض النجاشي هذا الطلب وعاد وفدهم خائباً ..

فعظم (خفاف) هذا الفعل للنجاشي ووصفه بالملك العادل الحكيم، فقد أدخل الطمأنينة في قلوب المؤمنين وأكرمهم وأجارهم من شر زمرة

باغية ظالمة، حيث تلمّس الصدق في سلوك المسلمين، وحسن شمائلهم، وإيمانهم بالله وبرسله ومنهم نبي الله عيسى ... وهذا نموذج رائع للتناغم والتفاهم والتخادم بين كل الديانات الموحدة ليعم السلام والوئام بين البشر...

في أحد الأيام يدخل أنيس على شقيقه الغفاري ليبلغه خبر انتشارالإسلام في يثرب، ويبلغه خبر إسلام الأوس والخزرج. يُسر الغفاري سروراًكبيراً، ويقول لأخيه، إعلم أنَّ الرسول الكريم سيقيم في يثرب.

استغرب أنيس من هذا القول مستفهماً من الغفاري عمن أبلغه هذا الخبر وهو لم يسمع بإسلام الأوس والخزرج إلا منه الساعة ؟

ـ يا أخي لقد سمعت ذلك من رسول الله في مكة عندما قابلته لأول مرة حيث قال:

لقد وُجهتُ الى أرضٍ ذات نخل فلا أحسبها إلا يثرب.

شاع الخبر في غفار وأسلم، فكانت الفرحة والبشرى والنصر العظيم لرسالة الحق والسلام وهي تعم الجزيرة كلها ..

بعد أن سمع الغفاري بهذه الأخبار السارة، قرر أنْ يذهب إلى يثرب بنفسه، ويسمع ويطلع على أخبار إخوانه من المسلمين، ويترقب

إطلالة الرسول على يثرب فيكون من أول المستقبلين له، وقد أبلغ أخوه أنس بنيته هذه ..

وأخيراً وصل العاشق لمحمد إلى يثرب محملاً بالشوق. دخل بستاناً لبني رزيق وسمع مقرئاً يتلو آيات من ذكر الحكيم، وسألهم عمن قابل رسول الله منهم، فدلّوه على (رافع بن مالك الذرفي). فقدم إليه وبادله السلام، وعرّفه بنفسه: أبو ذر الغفاري أخوك في الإسلام.

رحب به رافع مستفسراً منه عمّا يريده منه ؟

- علمتُ أنّك أسلمت وأسلمت الأوس والخزرج، وقد قابلتم رسول الله في مكة، هلّا أخبرتموني متى قابلتموه وكيف ؟

- لقد قابلناه والتقيناه في مكة وقد أسلمنا، وبايعناه، وقد دخل الإسلام كل دار من ديار الأوس والحزرج.

سرد رافع بن مالك كامل قصة لقائهم بالرسول، هم ومن بعدهم الخزرج وقد بايعوا وعاهدوا الرسول على مناصرته والدفاع عنه وعن الإسلام بالأرواح والأموال:

ـ عُدنا بعد عام لمقابلة الرسول ثلة من الأوس وأخرى من الخزرج وقد ضمنّا بيعة وإسلام كل أبناء قومنا .. بايعنا الرسول بيعة النساء: على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولانقتل أولادنا، ولانأتي ببهتان، نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فقال لنا ارسول الله:

فإن وفيتم فلكم الجنة، ومن غشّ في ذلك كان أمره الى الله، فإن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

ـ وهل قابلتموه بعد ذلك؟

ـ نعم يا أبا ذر، لقد قابلنا نحن قوم من الأوس وخمسمائة رجل من الخزرج، وانفرد بنا الرسول في أحد شعاب مكة وقد انسللنا اليه أفراداً، حتى لا نثير أهل الكفر علينا، وكان معه عمّه العباس، وكانت له كلمة معنا، مطالبا إيانا بأن نكون صادقين البيعة لله ولرسول الله، والإستعداد للدفاع والقتال دونه من أجل نصرة دينه.

وأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق: يا رسول الله بايعنا، فنحن أهل الحلقة ورثناها أكابراً عن كابر.

وقال أبو الهيثم: نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ..

وقلنا للرسول: إبسط يدك يا محمد، فبسط الرسول يده. وقد بايعناه وعاهدناه جميعا على نصرته ونصرة دينه ..

وقد تعالت الأصوات فرحاً وبهجةً وتكبيراً، بهذا العهد العظيم. وأمرنا العباس أن لا ترتفع الأصوات خشية علينا من أهل الكفر، وخشية على القوم الآخرين، وأمرنا بالتفرق والألتحاق بقبائلنا في يثرب.

ـ والله يا أخي شرحت صدري بما سردته عليَّ من إيمان الأوس والخزرج وبيعتهم للرسول الصادق الأمين، فصف لي حال الرسول بعد هذا النصر المبين؟

ـ لقد طابت نفسه، وانشرحت أساريره، وشكر الله على نصره، فقد أصبحت له منعة وحميّة من الذين ينصرونه ويذودون عنه وعن دين الله.

ـ وكيف تصرّف أشراف قريش وكفارها مع الرسول وصحبه بعد هذا النصر؟

ـ يا أخي إنَّهم أهل جاهلية وتعصب وقد أغلظوا القول والفعل على صحابة الرسول، وسببوا لهم الأذى، وما زالو في غيهم يعمهون، لكنهم لم يستطيعوا توهين سواعد المؤمنين، ولم ينالوا من إرادة الرسول وصحبه في الثبات على المبدأ والدفاع عن رسول الله، ولكنهم بعد التداول والمشاورة مع الرسول، قرر الرسول أن يهاجروا إلى يثرب ..

يثرب تعيش حالة غير مسبوقة، حالة من الفرح والترقب، تترقب وصول حامل رسالة الحق، فبأي إكليل سوف تتوّج به هذه المدينة؟

وقد شرفها نور الله ونور رسوله، بشائر الدين الجديد طويت كل مظاهر العداوات، وطُمرت عفن الثارات، والغزوات بين القبائل، انفتحت القلوب على بعضها، وتشابكت الأكف مع بعضها متآزرة متكاتفة من

أجل عالم جديد، عالم العدل والسلام والأمن والأمان، بعد حالة الاحتراب والكراهية، عالم السبي والنهب والوأد والقتل

أجوب في المدينة، فلا أشهد غير علامات الأمل والتفاؤل، تجمعات وكراديس لا تجتمع للأعداء لغزوة جديدة، بل تجتمع لسماع تلاوة القرآن، والأستماع الى شرح وتفسيرتلك الآيات المباركة، وتفهم أحكام القرآن الجديدة.

تآلفت الأوس مع الخزرج بعد عداوة دامت سنوات طويلة، تآلف الأبيض مع الأسود، وتبادل الإحترام السيد مع العبد، مقياس العزة والرفعة، هو التقوى والزهد والإستعداد للبذل والدفاع عن القيم والمبادئ، وليس المال والثروة، ولا الحسب والنسب ..

يا أخي (زمن) إنَّي لأعيش أجمل وأسعد أيامي، وعيني شاحبة صوب الطريق لأكحل عيني بقدوم حبيبي رسول الله .. تجمّع الناس حولي وكنت بينهم قطب الرحى، غفار تترقب بفرح أنْ يطل نور الله، القلوب ولهى للقاء الحبيب المخلص، حلم الفقراء ورجائهم، وأمل الفتيات في نجاتهن من وأد أو سبي، نيران الثأر تخمد في صدورالفرسان، قلوب راجفة وعيون محدّقة بين فرح وقلق، بين فرح وخوف، بين فرح وصول الرسول وبين قلق وخوف عليه من أعدائه ..

أشق غبار الصحراء بنورعيني لأفتح صدرالصحراء لأرى موكب الرسول، وبعد انتظار حسبته دهراً طويلاً، لاح الفجر وكحل عيني نور الصباح

فهتفت: أيّها القوم إنّه رسول الله، يا أهل يثرب يا غفار ويا أسلم والأوس والخزرج إنَّه رسول الله، فهللوا وكبروا وأحمدوا الله على سلامة الوصول، إنَّه فصل جديد من حياتكم وحياة مدينتكم، يوم فصل بين الجاهلية والإيمان، بين النور والظلام ..

نهبت أقدامي الأرض لأستقبال الرسول والإستضاءة بنوره، نعم أدركه وسلم عليه، وقبل نورعينيه، تلقف لجام ناقته سائراً نحو مستقر الرسول وصحبه، فتعالت أصوات التكبير، وتهللت الوجوه بالفرح، تعالت أصوات الصغار والكبار النساء والرجال، واأشدت:

طلع البدر علينا .. من ثنيات الوداع

وجبَ الشكرُ علينا .. ما دعا للهِ داع

أيها المبعوث فينا .. جِئتَ بالأمر المطاع

جِئتَ شرّفتَ المدينة .. مرحباً يا خير داع

إنَّه رسول الله الصادق الأمين، إنَّه محمد رسول الله، فاستبشروا يا أهل يثرب.

حينما وصل الرسول ورفاقه تحرسهم الملائكة وتطفأ نور عيون الكفار والأعداء لكي لا تستدل عليهم، انَّه نصر الله ..

يترجّل رسول الله، يتحلّق الناس من حوله، يتلوا عليهم آيات من الذكر الحكيم، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم. أقبل الناس يبايعون ويعاهدونه على نصرته وحمايته ونصرة دين الله الحنيف، وقفتُ الى جانبه فرحاً واثقاً مستبشراً بنصر دين الله وظفر رسول الله ..

إشرأبت عيون الناس تتفحص الرسول وتتملّى صفاته، وتتشرّب كلماته. فأي رجل كان؟ وأيّة شمائل رأينا. رأينا رجلاً ظاهر الوضاءة، متبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة (ضخم البطن)، ولم تزر به سعلة (نحول في البدن)، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف (في شعر أجفانه ول) وفي صوته صحل (صوت البحة)، أظحور أكحل، أزجاً قرن، شديد سواد الشعر، وفي عنقه سطع (إرتفاع وطول) وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، كأن منطقه خرزات (جواهر) نظم يتحدرن، حلو المنطق فصل، لا نزر ولا هذر، أجهر الناس، وأجمله من بعيد،وأحلاه وأحسنه من قريب،ربعة (وسط ما بين الطويل والقصير) لا تشنؤوه (تبغضه) من طول، ولا تقتحمه عين من قصر.

طلب (خفاف بن رحضة) سيد غفار من النبي أنْ يكتب له كتاب لبني قومه، فكان له ذلك، وكتب له ما يشرح صدره ويفرح قومه، ومثله كتب لقبيلة أسلم، فعمّ الفرح ببني غفار، فأسلم كل بني غفار وقبيلة أسلم وبايعوا رسول الله، مما أفرحني وأثلج صدري، فها هي غفار قاطعة الطرق، وسالبة القوافل، تضع يدها في يد رسول الله وتوظف سيوفها

لنصرة دين الحق والعدل والسلام، وأخذوا يدخلون في دين الله أفواجاً...

وهتفت من سروري وغبطتي: الحمد لله الذي هدانا لهذا.

حتى إنَّ رسول الله خاطب قومي ودعا لهم بالمغفرة: غفار غفر الله لها. وأسلم سلّمها الله ..

فشهدتْ غفار هذا اليوم ولادة جديدة لها ولتاريخها. وتلتها قبيلة أسلم، فأعلنت بيعتها وإيّمانها بدين الله وبمحمد نبيه ورسوله، فباركهم رسول الله.

بعد طول مكوث في غفار وأنا أعظ وأرشد وأثبت نور الله بين قومي الذين أعلنوا إسلامهم جميعاً، وقد تتالت أخبار معارك المسلمين مع قوى الكفار في بدر، وفي أحد، وفي الخندق. كنت أعيش حالة من الشوق إلى رسول الله وإلى اصطفافي مع إخواني المجاهدين في سبيل نصرة دين الله ..

في أحد الأيام دخلت الى باحة المسجد فوجدت مسلماً يرتل آيات من القرآن الكريم: {يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم،

ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن في جنات عدن ذلك الفوز العظيم} ..

أرهفت السمع الى كلام الله وتفكرت المعنى، وهذه الدعوة الكريمة، أنْ يتاجر الإنسان مع الله .. والله إنَّها لتجارة عظيمة لا تضاهيها تجارة، وعمل لا يضاهيه عمل، تجارة تعود للجميع بالخير والعدل والسلام، تجارة ربحها للإنسان التاجر وليس لله، فهوغني عن ما يفعله البشر ولا حاجة له ببضاعتهم وتجارتهم بقدر ما هم في أمس الحاجة اليها لتنتظم حياتهم وترتقي نحو الأفضل، جزاء هذه البضاعة وهذه التجارة غفران الذنوب، وجزائها جنات عرضها السموات والأرض، دار خلود تجري من تحتها الأنهار.

ـ ما الذي يحول بينك وبين هذه التجارة يا جندب ؟ .. ماذا تنتظر في هذه الصحراء الجدباء ؟ ، ألا تحلم برضا الله ورسوله ؟ ، ألا تحلم بجنات الخلد ونعيمها وأنت تعيش حياة الفقر والبؤس وغلظة الصحراء وهجيرها ولم تر نهراً ولم تشهد روضاً ؟

ـ نعم نعم أفهم وأستوعب ما تريده مني لأكون بين قومي، وقد أديت واجبي تماما تجاههم وقد أدخل الله نور الإيمان في قلوبهم وأستكملوا بيعتهم لدين الله ورسوله، والآن بينهم أولئك الذين تفقهوا الدين وتعاليمه وفروضه، ولابد لي أنْ أنتقل الى مرحلة ثانية من الجهاد

وأشارك إخواني المسلمين في مقارعة الكفار ممن ناصبوا الإسلام العداء.

ـ ولكن يا جندب لو كان رسول الله بحاجتك لدعاك للجهاد، وعندها تستجيب وتلبي الدعوة.

ـ إسمع يا أنيس، إنَّ الإنسان يدرك بعقله وبفكره ما عليه أنْ يفعل، وأن يبادر الى أداء الواجب قبل أنْ يدعى ويأمر بفعله، فأنا أرشدني عقلي الى قصد رسول الله في مكمنه، والآن يدعوني عقلي وضميري وإيماني الى تلبية نداء الجهاد في سبيل الله، وأنّ التحق بجند الله، وليكن سيفي بين سيوفهم للذود عن دين الحق ونشر نورالله، ولأحضى بوعد الله للمتاجرين معه فإنَّ وعد الله حق لا ريب فيه .. وأنا يا أنيس قد حسمت أمري وسأنطلق من ساعتي هذه الى يثرب لنصرة رسول الله لأكون من جند الله.

وعندما جهزت رحل فرسي لأتوجه الى يثرب. سألني أنيس: أين ستسكن في يثرب يا أخي يا أبا ذر؟

ـ سأبيتن مع أخوتي المسلمين الصوافي في مسجد رسول الله فأنا لست أفضل منهم.

ـ لا تنسَ أن تتزود بما يغذيك خلال رحلتك إلى يثرب؟

ـ إنَّ زادي إيماني يا أنيس ولا حاجة لي إلا الى شربة ماء .. والآن استودعكم الله.

ـ وهل لكم عودة يا أباذر الى دياركم؟

ـ لا أظنني راجع يا أخي حفظكم الله وأستودعكم قومي، أوصيكم بحفظ دينكم وأداء صلاتكم، والإستعداد لتلبية أمر رسول الله متى ما دعاكم الداعي لنصرة دين الحق.

شعرت كأني أمتلكت جناحين لأطير صوب حبيبي رسول الله، الى مدينة النور والسلام، هذه المدينة التي ستكون منطلق نورالأسلام الى كل بلدان العالم، حيث ستحطم الأصنام، وتحطم العادات والتقاليد الجاهلية، حيث الأخاء والمحبة والتضامن، سيكون سيفي مع سيوف أخوتي لنشر هذا الدين، بدلا مما كان عليه موظفا للسلب والنهب والغزو فستولد الجزيرة من جديد، أشعر الآن أن الطيورترافقني، والاشجار تهلل لي، والرياح تحملني، لا أشعر بالتعب، ولا بالعطش، أقترب من المدينة رويداً رويداً، كطائر يعود الى عشه، كغريب عاد الى بيته ...

وصل الغفاري الى يثرب، فتأمل بساتينها وزرعها، جمال طبيعتها، نقاء هوائها، انبساط أرضها، وليس كما هي أرض غفار القاحلة الممحلة، فحمد الله وشكره على عظيم خلقه، وعظمة تدبيره، مما يصعب على الإنسان تفسيره ..

بعد كل هذا التأمل والتفكر دخل الى مسجد رسول الله، وانزوى في أحد أركان المسجد منفرداً يتفكر ويتدبر متلهفاً الى رؤية رسول الله حال قدومه ليأم الصلاة. لاحظ وحدته عمر بن الخطاب فبادره بالسلام والسؤال: لم تجلس وحيداً؟

ـ أجلس، الصاحب الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملي الخير خير من مملي الشر، والأمانة خير من الخاتم، والخاتم خير من ظن السوء."

جلس الغفاري وابن الخطاب يتحاوران في شؤون دينهم، وأحوال المسلمين، وما كتب الله لهم من النصر والظفر، ونور الإسلام تتسع دائرة إنارته لتبلغ المزيد من القبائل، والعشائر، والناس تقبل على دين الله، وبينما هما على ذلك الحوار حتى رفع بلال الأذان، فتقدم رسول الله وأمَ الجماعة، وارتفع صوت التكبير والتهليل. وبعد الانتهاء من أداء الصلاة، جلس الرسول وأحتفى به المسلمون من كل الجهات وهم يستمعون بأهتمام كبير الى موعظته قائلاً: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم بينكم هو الفصل، ما تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تقضى عجائبه، هو الذي لم ينته الجن أذا سمعته حتى قالوا: {إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به} من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي الى صراط مستقيم.

بعد أنْ ارتوت أرواح المؤمنين مما سمعوا من رسول الله من كلام حكيم يحكي عظمة القرآن، وفضله وما يحمله من الحكمة، والموعظة لهداية الأنس والجن الى الطريق القويم والصراط المستقيم، وإنَّ الله بكل شيء عليم، غادر النبي الى داره، وذهب الغفاري مع صحبه من الصوافي لينام في باحة المسجد، وما إنْ قضوا ثلثي الليل، حتى جاء أبوهريرة يبلغهم إنَّ رسول الله يدعوهم الى داره، فسارعوا إلى الإستجابة لطلب الرسول، استأذنوا ودخلوا الدار، فوضع الرسول أمامهم صحيفة من معمول الشعير مخاطبهم: خذو بأسم الله، والذي نفس محمد بيده ما أمسى في آل محمد طعام شيئا ترونه.

لأن رسول الله كان يعلم أن الصوافي وكان عددهم ثلاثون مسلماً، لا دار ولا مؤنة لديهم، مما يتطلب رعايتهم، ومتابعة أمورهم، فاقتسم معهم زاده، ولم يبخل عليهم بشيء، وبعد أن اكملوا زادهم عاد الصوافي الى مكان منامهم وهم يعظمون ما فعله الرسول معهم، وأهتمامه بهم كما يهتم بأمر أهله وعياله، وقد دعاهم حال توفر الطعام لديه، وهو نفس طعام أهله آل محمد، فما أعظم وما أكرم هذا الرسول المخلص حامل راية العدل والمساواة.

الغفاري كان بين النوم واليقظة وهو يعيش عظمة كلام الرسول وعظمة كتاب الله، وعظمة إنسانية الرسول وتواضعه وحبه لصحبه من المؤمنين ،وهو كذلك سمع حفيف ثوب فتنبه وإذا برسول الله يدخل المسجد ويبدأ بالصلاة ويرتل: {إنْ تعذبهم فأنَّهم عبادك، وإنْ تغفر لهم

فأنَّك أنت العزيز الحكيم} فأفاق الغفاري متأملاً صلاة الرسول وترديد لهذه الآية حتى مطلع الفجر، وما أنْ انتهى رسول الله من صلاته حتى بادره الغفاري مستفسراً: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية، حتى أصبحت تركع وتسجد بها.

أجابه رسول الله قائلاً: إني سألت الله الشفاعة فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل.

ظلّ الغفاري يبيت في المسجد مع الصوافي, يترقب رسول الله حتى يسارع للجلوس بجانبه، وكان رسول الله يبتدئه إذا حضر، ويتفقده إذا غاب.

في أحد الأيام بادرني حبيبي رسول الله بقوله: ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة.

فقلت: وإن زنى وإن سرق ؟

فقال الرسول: وإنّ زنى وإنّ سرق ؟

مما أثارالأستغراب والعجب لديَّ، فكيف يدخل الجنة من يزني ويسرق وهو سلوك نهى عنه الله في كتابه الحكيم ؟

فقلت مستغرباً مرة أخرى: وإن زنى وإن سرق ؟

فقال الرسول مؤكداً: وإن زنى وإنْ سرق وعلى رغم أنف أبي ذر!

فأُسقط ما في يدي، وأصر الرسول على قوله وأكد ما قال، وهل يمكن رد قول الرسول ؟ وهو لا ينطق عن الهوى، إنما هو وحي يوحى، فأخذت أتفكر هذا الأمر وأتدبره مع نفسي: يا جندب هل تشك بقول رسول الله ؟

معاذ الله، لا والله لا يمكنني أن اشك بقول حبيبي وقرّة عيني الصادق الأمين، ولكن عليَّ بمراجعة نفسي، ومراجعة عقلي لأتعرف المغزى من قول الرسول ..

وخاطبت نفسي: يا الله ما أبسط وأفقر عقلك يا ابن جنادة، ألا تعلم يا جندب إنَّ من وحّد الله وأقر بوحدانيته والعالم بكل خبايا النفس البشرية، لا يمكن أنْ يستمر على عمل المنكر، ولابد له من توبة، ومراجعة الذات، وبالتالي يسيرعلى طريق الهداية والسلوك القويم.

وأوضح لي رسول الله ما استغلق عليّ فهمه: يا جندب إنَّ الإيمان بالله وتوحيده ينهى الإنسان عن كل فعل مشين، البشر خطائون ولابد انْ تفتح لهم أبواب التوبة وإصلاح الذات، وانَّ الله غفور رحيم، فمن يعرف الله حق معرفته لا يمكن أن يسدر في غيه ولا يمكن أنْ يستمر على أرتكاب الفواحش، وأعمال السوء. فكيف لا يترك طريق السوء من يؤمن بالله ويقف بين يديه في صلاته، وهو علاّم الغيوب العارف بما تخفي الصدور، وهنا المهم والأهم أن يوحد الأنسان الله ولا يشرك به، فإذاً لابد له من التوبة، والتكفير عن ذنبه إنْ زنى وإنْ سرق ..

ـ ما أعظمك يارسول الله ؟ وما أعظم حكمتك ؟ وما أغزر علمك ؟

في أحد الأيام دخلتُ المسجد، وأقتربتُ من مجلس النبي، فسألني هل صليت يا أبي ذر صلاة تحية المسجد؟ فإنها ركعتان. قلت: لا يا رسول الله، فأمرني أن أصليها وأعود إليه، ففعلت، ثم جالسته، وكعادتي لا أفوّت فرصة قرب الرسول إلا انتهزتها للتزوّد من علمه وحكمته للتفقه في ديني ودنياي، فقلت له مستفهماً: يا رسول الله أمرتني بالصلاة، فما الصلاة؟

ـ خير موضوع استكثر أو استقل.

- أي الأعمال أفضل يا رسول الله؟

- إيمان بالله عز وجل، وجهاد في سبيله.

- فأي المؤمنين أفضلهم إيمانا؟

- أحسنهم خلقاً.

- فأي المسلمين أسلم يا رسول الله؟

- من سلم الناس من لسانه ويده.

ـ فأي صدقة أفضل؟

ـ جهد من مقل يسير الى فقير.

وأكثرت من أسئلتي عن كتب أنبياء الله ومضامينها، وعددها، فعدها لي الرسول، وأوضح مضامينها، وبيّن لي الكثير من الحكمة والموعظة، ثم طلبت منه أنْ يوصيني، فقدم لي الرسول وصايا تحفظ لي ديني وانسانيتي، وتثبتني على مبدئي، وتوصلني الى جنات الخلد ومنها:

أحب المساكين وجالسهم .. صِلْ قرابتك وإن قاطعوك .. لا تخشَ في الله لومة لائم .. قل الحق ولو كان مراً ..

وكلما قال الرسول حِكمة، أقول له: زدني يارسول الله:

ـ يا أباذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولاحسن كحسن الخلق.

وأستمر الغفاري يسأله والنبي يجيب بأحسن القول، وأحكم الحكم، راسماً خريطة طريق المسلم المؤمن الصالح في حياته وهي طريقه الى مرضاة الله وطريقه الى الجنة.

رسخت هذه الوصايا في عقل وضمير الغفاري طيلة حياته، فكانت هذه الوصايا والمواعظ والحِكم خير مرشد ودليل لسلوكه وحياته .. فما أروعك يا غفاري وما أحكمك؟

رددت مع نفسي: يا (زمن) ما أحرى بأهل القرن الحادي والعشرين وممن قبلهم وممن هم بعدهم، بتمثل هذه القيم وهذه الوصايا التي لم ترتق إليها أرقى دساتير العالم المعاصر، لدرء شرورالذات، وشرور الحكام، وكل من يسعى للإثرة بالسلطة والثروة والجاه؟!

الفصل الثـــالث
النصر المبين

رسول الله في المسجد مع أصحابه يعظهم ويحدثهم عن أحكام الإسلام وتعاليمه، وبقربه الغفاري يستمع له بكل جوارحه، ليستزيد منه علماً .. يدخل عليهم عمرو بن سالم الخزاعي وهو في حالة من التوتر والأنفعال، يقترب من رسول الله ويقف بين يديه قائلاً: يا رسول الله .. قريش نقضت صلح الحديبية.

اشرأبت أعناق المسلمين يستفسرون عن ذلك .. وكيف حدث؟ ولماذا؟ .. يسترسل الخزاعي بحديثه إلى رسول الله:

ـ يا رسول الله .. قريش حسبت عدم الأنتصار في معركة مؤتة ضعفاً منّا .. فحرضوا بني بكر علينا .. في تلك الليلة بينما نحن على ماء لنا، هاجمونا غيلة وغدراً وقتلوا منا جماعة .. وأتيت أخبرك يارسول الله بما حدث ..

بان الغضب على ملامح وجه رسول الله ورفع رأسه إلى السماء لحظات، ثم استدار بوجهه ناحية عمرو: نُصرتَ يا عمرو بن سالم ..

بعد تفكر وتدبر، رأى رسول الله بعد مشاورة مع أصحابه أن ما قامت به قريش من نقض صلح الحديبية، وإقدامهم على قتل جماعة من المسلمين من دون ذنب، يستحق الرد .. ولكنه رد من نوع خاص .. لابد من استعادة مكة من براثن هؤلاء الطواغيت .. لابد من التهيؤ والاستعداد لفتح مكة .. أرسل الرسل الى كل أرجاء الجزية ليحث المهاجرين والأنصار بالاستعداد للفتح العظيم.

قرر الرسول أنْ يفتح مكة دون إراقة الدماء، وعزم أنْ يعد لهم العدة دون علمهم ليفاجئهم، بجيش جرار لا قدرة لهم بمقاومته فيستسلموا دون قتال، وقد بدأ بجولات بصحبة الغفاري لإبلاغ الناس بنيته، ودعا الله أن يغشي عيون قريش حتى لا تعلم بحشود المسلمين الزاحفين نحوهم، وكان للمسلمين ذلك .. سار الجيش نحو مكة، والغفاري قائم على خدمة رسول الله لا يفارقه أبداً، حتى وصل الجيش إلى مشارف مكة .. خرج أبو سفيان مدهوشاً يستطلع الأمر ومعه العباس بن عبد المطلب عمّ النبي، شاهد حشوداً لم يشهد مثلها من قبل، اتجه ناحية العباس عمّ النبي مستفسراً: ما الأمر يا عباس؟ لِمَ كل هذه الحشود التي لم نرَ مثلها من قبل؟

- يا أبا سفيان .. إنَّه جيش المسلمين بقيادة رسول الله، قدمت لفتح مكة .. هل نسيتم فعلتكم في نقض صلح الحديبية؟

-يا عباس أجرني بحق الآلهة! .. بحق القرابة التي بيننا ..

وبعدد تردد .. يوافق العباس .. يطلب منه أن يسايره .. ويذهبا معاً إلى رسول الله .. يدخلا خيمة الرسول .. المسلمون في غضب شديد من رؤية وجه أبو سفيان .. يتمنى كل واحد منهم أن يتولى أخذ الثأر منه لولا الحياء من رسول الله .. العباس يُلقي التحية على رسول الله: يا ابن أخي .. يا رسول الله .. لقد أجرت أبا سفيان ..

بعد صمت .. يرد الرسول على عمه: إذهب به ياعباس الى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به.

في الصباح يحتشد المهاجرون والأنصار ليروا ماذا سيفعل رسول الله بأبي سفيان، يُأتى به بيد العباس ليمثّل بين يدي رسول الله، فيخاطبه الرسول:

ـ ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أنْ تَعلم انَّه لا إله إلا الله ؟

ـ بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك .. والله لقد ظننت انَّ لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد.

ـ ويحك يا أباسفيان: ألم يحن لك أنْ تعلم إني رسول الله ؟

ـ بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك .. أما هذه فإن في النفس منها شيئاً!

كنت يا (زمن) أراقب هذه المحادثة بين الرسول وبين أبي سفيان، محدثاً نفسي ما أوقح هذا الرجل، وما أحمقه ؟ .. أيرى كل هذا النصر من عند الله لرسول الله، ويرى هذا العِلم وهذا الحلم وهذه السماحة، ولا يريد أن يقر بنبوة رسول الله، والله لو أذن لي رسول الله لقطعت رأسه، وطمرت بأسه، وإنّي أتوقع إنَّ هذا الطاغية المتغطرس سيكون عدواً لكل مسلم صادق، وإنَّه لم يضمرالإخلاص لقيم الإسلام، بل يضمر العداء الدائم لضرب الإسلام متى وجد الفرصة لذلك .. رأيتُ يا أخي

(زمن) غضب العباس وكان قد أسلم سراً قبل زعماء مكة .. التفت ناحية هذا المتغطرس منفعلاً: اعلِن إسلامك الآن يا أباسفيان .. وإلا ضُربت عُنقك.

ورأيتُ يا (زمن) كيف يعلن أبو سفيان إسلامه مكرهاً، وقلبه لا يأمن .. كأنه أضمر وأدخر نار حقد وثأر دفين على رسول الله وعلى الإسلام وعلى بني هاشم .. الى حين.

كنتُ كبقية المسلمين يا أخي (زمن) من المؤيدين لقطع رأس هذا المتغطرس الذي لم يسلم حباً بالإسلام ولا إيماناً به، ولكنه خشي القتل .. كنت استشرف الاحداث التي ستقع لاحقاً والتي سيكون لأبي سفيان وعائلته دوراً سلبياً فيها.

فأنا اعرف نفسية هذه العائلة التي تقدّس المال والجاه والثراء والمناصب والوجاهة الدنيوية، عندما كنا نتعامل معهم في التجارة قبل الإسلام .. لم يتغيّروا، بقيت نفوسهم الطامعة والطامحة هي هي .. ولكن يا أخي (زمن) سماحة وخُلق النبي العظيم بالعفو عنه فوق كل اعتبار .. سماحة النبي أخجلتنا من الاعتراض عليه .. إنه رسول الله خاتم الأنبياء وبرسالته العظيمة مسك الختام لرسالات السماء، فهو أعرف بكل تصرّف يقوم به ولا طاقة لنا بمخالفته، كيف وهو لا ينطق عن الهوى.

رسول الله يتطلع من جبل إلى مكة .. يستذكر طفولته وفتوته وشبابه وأهله، يستذكر تلك الحوادث التي جرت طيلة خمسة عقود قضاها هنا .. ها هي مكة التي كانت حبيبة القلب ثم أضحت غصّة حين انبلج نور الإسلام من مرابعها .. ها هي مكة مستسلمة لا قبل لها بالقتال .. فحمد الله وشكره على نصرة دينه، وخذلان أهل الكفر.

أتيتُ رسول الله بجفنة من ماء ليغتسل كما طلب مني ذلك. تقدم راكباً دابته .. طاف حول الكعبة سبعاً وهو على دابته، فلما أكمل طوافه، وقف على باب مكة، وقد فتحت أبوابها، توجه الى أهل مكة مخاطباً: يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل بكم؟

ـ خيراً .. أخ كريم وابنُ أخ كريم.

ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء.

يا أخي (زمن) كنت في غاية البهجة والفرح وأنا أشهد نصرة دين الله ورسول الله على عتاة وطواغيت وزعامات قريش في مكة. رأيت تهلّل وجه رسول الله وصحبه بنور الظفر والنصر، وعلت أصوات التكبير والتهليل والتسبيح في أرجاء مكة، .. المسلمون يهنئ بعضهم بعضاً بهذا النصر المبين .. فيما كانت راية الفتح ترفرف بيد على بن أبي طالب وهو يردد عالياً شعار رسول الله: اليوم يوم المرحمة، اليوم تُصان الحُرمة...

دخل رسول الله إلى الكعبة، وأخذ يشير على الأصنام بقضيب في يده مردداً: جاء الحق وزهق الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقا.

تهاوت الأصنام على وجوهها ذليلة مهانة .. وهتفتُ مع الهاتفين: جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقا.

نعم يا أخي (زمن) كنتُ في غاية الفرح بهذا النصر العظيم، الذي جاء من دون إراقة قطرة دم واحدة، فما أعظم قدرة الله وأعظم نصره، وما أحكم رسول الله، وسماحته مع أبناء قومه على الرغم مما لاقى منهم من أذى وجبروت، إلا إنَّ الله غفور رحيم، ويقبل توبة من يتوب مع إنَّه يعلم تماماً إنَّ منهم لم يدخل الإسلام في قلوبهم، داعياً لهم بالتوبة النصوحة والمغفرة وإتباع الطريق القويم، بصدق إرادة وقلب سليم، فالله هو العليم بما تخفي النفوس ..

كنتُ لا أغفل أبداً عن رسول الله، رفيقاً لصيقاً، حذراً متوثباً لأي حدث أو محاولة قد تؤذي رسول الله من أعداء الله وهو المحروس بعين الله ورعايته، فالله هو القدير على إنقاذ دينه، وحماية رسوله، وهو على كل شيء قدير ..

بعد فتح مكة أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، أفراداً وقبائل، يأتون فيبايعون رسول الله، ويعاهدون على نصرته، واستبشرنا خيراً بنزول سورة النصر بعد الفتح المبين لمكة: {إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبّح بحمد ربّك واستغفره

إن كان تواباً} ، فكنت دائم الترتيل لهذه الآيات المباركة، أرفع بها صوتي لأغيض أولئك الذين أسلموا بلسانهم ولم تؤمن قلوبهم.

بمرور الأيام تحسّن حال المسلمين، ورفع الله عنهم حياة الضنك والضيق، وبدت عليهم بعض آثار الرفاهية، إلا إني بقيت على زهدي، لم يدخل بيتي أي شيء من ذلك، ولم أغير زادي من الشعير، ولم أستبدل فراشي بفراش وثير، ولا ألبس الا الخشن، مقتدياً بحبيبي رسول الله، وابن عمه علي بن أبي طالب.

وجّه رسول الله دعاته، وسعاته الى جباية العُشر من أموال المسلمين، مع المحافظة على أصولهم، فكان له ذلك .. رأيت في أحد الأيام، أحد أولئك الجُباة وهو من قبيلة الأزد، كان النبي قد استعمله على الصدقة، فقدم ما لديه قائلاً للرسول: هذا لكم، وهذا لي فقد أهدانياه الناس! ..

استنكر الرسول هذا الفعل وهذا القول، مطالبا الرجل بتسليم كل ما حصل عليه من المال، فإنَّما أهدي له لأنه مكلف من قبل رسول الله، ولو كان جالساً في داره ما كان يُهدى إليه ما يدّعي. ونتيجة لذلك خطب الرسول في المسلمين موضّحاً ومنبّهاً الجميع أنْ لا يحق لأحدهم أنْ يستغل منصبه أو تكليفه من أجل الإستئثار بالمال أو الجاه: والذي نفس محمد بيده لا يأخذ أحد منه الا جاء به يوم القيامة بحمله على رقبته، إنْ كان بعيراً له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَصيح، اللهُمّ اشهد إني بلّغت ..

(زمن) وهو يصل الى هذه السطور من مذكراته، وهو يشهد هذا المشهد مخاطباً أهل زماننا الحاضر:

أينَّ أنتم يا حكام هذا الزمان؟ يا مَن تدّعون الإسلام وقدوتكم رسول الله وسيرته، وأنتم تستأثرون وتنهبون ثروات البلاد والعباد من دون حق، تكنزون الذهب والفضة، وتمتلكون القصور والفلل، وتغتصبون حقوق المسلمين، وتخالفون تعاليم الدين، فأين أنتم من دين الله؟، ومن سيرة رسول الله؟ .. هل لكم عذر باكتناز الدولار، والالماس، واللؤلؤ، وهي كنوز مذكورة في الآية الكريمة؟

ماذا تقولون للرسول، ولعلي، وللغفاري، وأتباعهم، من الذين عاشوا وماتوا وقوتهم خبز الشعير وفراشهم الحصير؟

لاحظ الغفاري حزن الرجل الأزدي وانكساره نادماً على ما فعل .. اقترح عليه الغفاري أنْ يطلب العفو من الرسول، وكان له ذلك، فقد أعذره رسول الله، وذكر له إنَّ الله غفور رحيم، يرزق من يشاء، ولا تغني الأموال الله شيئاً ولا تنقص من ملكه شيئاً، فهو العلي القدير، مالك السموات والأرض، وهو قال عنه رسول الله محدّثاً عن الله: لو أنَّ أحدكم مرّ بشفة البحر، فغمس فيها إبرة ثم انتزعها كذلك لا ينقص من ملكي، ذلك بأني جواد ماجد حمد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فإنماً أقول له كن فيكون ..

قام النبي وانصرف، في حين بقي الغفاري يحدث القوم ويرشدهم الى سلوك طريق الزهد، مذكرهم بجزاء الله للمؤمنين الزهّاد جنات تجري من تحتها الأنهار، فهذه الدنيا فانية زائلة، وعلى المؤمن أنْ يسعى للفوز بعالم الخلود، حينما يفنى الوجود، ضارباً لهم أروع الأمثال بالزهد والتقشف وعدم السعي وراء المال وجمعه، ثم غادرهم وقصد رسول الله وكان معه جبرائيل بهيئة وصورة (دحية الكلبي) ولكنه لم يُسلّم. فقال جبرائيل: هذا أبو ذر الغفاري، ولو سلّم لأجبناه. فسأله الرسول وهل تعرفه يا جبرائيل ؟ فأجاب: والذي بعثك في الحق نبياً، لهو في ملكوت السماوات السبع أشهر منه في الأرض.

ـ وبماذا نال هذه المنزلة ؟

ـ بزهده في هذا الحطام الفاني ..

سمع الغفاري هذا الكلام بين رسول الله ودحية الكلبي الذي غادر المكان. وعلم الغفاري بعد ذلك حقيقة تلك الشخصية. فحمد الله كثيراً على هذه الشهادة التي جاءته من السماء، إنه يقف على أرض صلبة من الإيمان الصادق الحقيقي، والقناعة بما رزقه الله.

بينما هم على جلستهم هذه ، وتبادلهم للأحاديث ورد الرسول نبأ من بلاد الروم، انَّها قد أعدت العدّة وجمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأنَّ هرقل قد زود جنوده من الميرة ما يكفيهم لمدة سنة، وهو عازم على غزو

شمال شبه الجزيرة، لوقف زحف المسلمين في مختلف الأتجاهات، وتحالفت معه بعض قبائل العرب من لخم وحذام وعاملة وغسان ..

أرسل الرسول رسله الى كافة العشائر بلزوم الاستعداد وتوفير العدّة والعدد لصدّ هذا الهجوم المرتقب، وطلب من أغنياء المسلمين بمدّ الجيش الإسلامي بالخيل والسلاح، والغذاء، فالطريق طويل، والحر لاهب، والمسير ليس هيّناً في مثل هذه الظروف. بصّر الرسول جموع المسلمين بهذا القرار ووجهته هذه المرّة، وليس كما حدث في فتح مكة، فأحتشدت الحشود المستعدة للقتال بين يدي رسول الله، حتى رسول الله قد رد سيل من فقراء المسلمين للألتحاق بالمسلمين لأداء فريضة الجهاد، ولكنه رد طلبهم لعدم توفر الخيل والجمال القادرة على حملهم عبر هذا الطريق الطويل: لا أجد ما أحملكم عليه.

فعادوا إلى قراهم ومنازلهم، وفي نفوسهم حسرة لعدم فوزهم بهذا العمل العظيم، وقد عبّر القرآن الكريم عن حالة الشعور تلك: {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، الا يجدوا ما ينفقون} في سبيل نصرة الإسلام، ولكنهم دعوا الله بقلوب مؤمنة أن ينصر جيش المسلمين ويمده بعنايته ورعايته. فيما وجد بعض ضعاف الإيمان هذا الواقع حجة للتخلف عن الجيش والبقاء في بيوتهم.

نظراً لطول الطريق الصحراوي، وارتفاع درجة الحرارة أصيبت الحشود بالتعب والأرهاق، وهم يقطعون هذه القفار، ويحتملون هجير الشمس

اللافحة، فأصابهم الإرهاق، ولكنهم واصلوا السير قاصدين تبوك، وقد تخلف عن الركب (كعب بن مالك) حيث أخبر نفر من المسلمين الرسول بتخلفه، فأجابهم: دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإنْ يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه ..

يُكمل الغفاري شرح القصة إلى (زمن) الذي يصغي بانتباه شديد ويدوّن في دفتره كل شاردة وواردة يسمعها:

يا أخي (زمن) لم أكن أملك سوى جمل ضعيف أعجف، فقلت مع نفسي سوف أعلفه ليقوى ويحتمل الطريق، ولكن الجمل كلَّ ووهن حتى برك في الأرض ولم يستطيع مواصلة السير .. فماذا أفعل؟ وقلبي يتحرّق شوقاً للالتحاق بالجيش .. ما كان مني إلا أن اترك الجمل في مكانه، وأحمل متاعي على ظهري، وأواصل المسير راجلاً، وأملي بالله كان كبيراً أن لا يخيب هذا السعي وهذا الجهد. ليس أمامي إلا أن التحق بالجيش أو أهلك في الطريق ..

لاحظ نفر من المسلمين تخلفي عن الالتحاق، فأخبروا رسول الله بذلك. فأجابهم بمثل ما أجابهم حول تخلف كعب بن مالك: دعوه، فإنْ يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإنْ يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه ..

أصاب الرجال العطش الشديد بسبب نفاد ما بحوزتهم من مخزون المياه، فأصابهم مزيدا من الإرهاق والتعب والمشقة، وذلك ما يصعب

احتماله، مما أضطر بعض الفرسان شق بطون أبلهم للحصول على شربة ماء عسى أن تطفأ نار عطشهم.

وحينما لاحظ أبو بكر هذا الحال، تقدّم إلى رسول الله، وطلب منه أن يدعو الله ليمن عليهم بالمطر، وهو سامع لدعواه عند كل محنة يمر بها المسلمون.

رفع الرسول يديه الى السماء ودعى الله بدعاء طلبا للعون، وما إنْ خفض يديه، حتى تكاثفت الغيوم، ودوت البروق، وسقط المطر مدراراً .. فارتوى الرجال وارتوت الخيول والجمال، ملؤا قربهم وما يملكون من أواني بالماء الزلال، فدبّ الفرح واحتيا الأمل في قلوب الرجال وقويت عزيمتهم، ونصرة الله لهم، وترسخت في أنفسم عظمة الرسول حينما لاحظوا أنَّ المطر لم يتجاوز المكان الذي حلوا به .. أيقنوا عندئذ إنَّ الله ناصرهم وناصر نبيه ودينه وإنْ كره الكارهون .. بينما كانوا كذلك اقتربتُ من حشود المسلمين ببطء شديد، لمحني أحدهم من بعيد فاخبر رسول الله، فقال الرسول: كن أبا ذر .. أبا ذر ..

وما أن اقتربت أكثر وأكثر وشاهدت معسكر المسلمين حتى خفّت قدمي وقويت عزيمتي، بما لم أعهده من قوة على السير، وتمنيت أن أحلق في الهواء لأدرك المعسكر، وتقر عيني برؤية رسول الله، لئلا يظن (وحاشاه) أني تخلفت مع المتخلفين عن الجهاد. هيهات هيهات .. لستُ من أولئك الرجال الذين خارت عزيمتهم، وتضعضع إيمانهم، وجُبنوا عن الجهاد في سبيل الله .. فإن كنت مثلهم فلا قرّت عيني بالحياة، وباطن الأرض أولى بي من ظهرها.

ما إن وصلت وأنا في أشد حالات الإعياء والجهد والمشقة، حتى سقطتُ على وجهي قرب رسول الله الذي أسرع لاحتضاني، ورفع المتاع عن كاهلي، رافعاً صوته: أهلاً بصادق اللهجة .. أهلاً بموفي العهد وثابت الجِنان ..

وما أشد فرحتي يا أخي يا (زمن) برؤية رسول الله وهو يدعو لي، ويناولني بيده المباركة شربة ماء انسابت في داخلي كأنها شراب من الجنة .. تأملتُ وجه حبيبي رسول الله الوضّاء، فاشتدت عزيمتي وذهب عني النصب والتعب، وبدأ المسلمون بتحيتي مهنئين بسلامة الوصول إليهم.

لاحظ علي بن أبي طالب أن في متاعي قربة من الماء، فقال لي مستغرباً:

ـ يا عم يا أبا ذر، إذا كان معك هذا الماء، فلماذا أنت على ما هو عليه من الظمأ؟

ـ يا أبا الحسن، وأنا في الطريق لاحظت ما يشبه السراب فأتيته، فإذا به ماء عذب بارد، فملأت إنائي وأحكمت إغلاقه، وقررت أن لا أشرب منه حتى ألتقي بحبيبي رسول الله ويشرب منه.

فلما سمع رسول الله قال: لقدغفر الله لك يا أباذر بكل خطوة ذنباً، إلى أنْ لقيتني .. أنت تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك ..

وبعد أنْ أرتوت حشود الجيش، وأستراحوا، استأنفنا المسير مع الرسول الى تبوك، وعدد جيشنا يقترب من ثلاثين ألف مقاتل، وعشرة آلاف

فرس، وقد مكثنا هناك عشرين ليلة، وكان رسول الله يصلي الصلاة ركعتين. ولم نشهد كيداً، ولم نشهد حشداً، فقفلنا وجيشنا بالرجوع الى مكة، وبلغناها في شهر رمضان قبل وفاة رسول الله بسنة وبضعة أشهر، وسمعت رسول الله يقول عن مسيرنا هذا: الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجر وحِسبة ..

الفصل الرابــع

العُــروج

رافق الغفاري النبي في سفرته الى مكة ليحج حجة الوداع. كان على درجة كبيرة من الحزن والألم، إذ استشرف بفراسته قرب رحيل رسول الله الى جوار ربه، بعد أن أكمل إبلاغ رسالته وأتم مهمته .. كيف سيتحمّل الحبيب فقد وفراق حبيبه؟، كيف يتحمّل الغفاري فراق الرسول، وهو الذي رافقه وعايشه وأستقى من علمه كل هذه السنين؟، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا راد لمشيئة الله وحكمه.

وقف النبي في حجّة الوداع يخطب الناس ويتلو لهم آخر آيات القرآن نزولاً: {اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الأسلام دينا} .. فأصيب الغفاري بالهم والكدر، تمنى لو إنَّه فارق الحياة قبل رسول الله ...

بعد حجّة الوداع عاد رسول الله الى المدينة، وهو يواصل لقاءات صحبه ورفاق جلساته ومحبيه، وقف بين مريديه يحدثهم يعظهم ويستمع الى ما عندهم، وما يسرهم وما يجيش في صدورهم، فيجيبهم على ما يشكل عليهم، وقد لفت الحضور من صحابة الرسول غياب الغفاري، فلم يكن مع الحاضرين هذه المرة،

فارتآى له بعضهم عذراً، فربما انشغل في أمر طارئ منعه من الحضور، أو ربما كلفه رسول الله بأمر ما .. أشادوا بالغفاري ومحبة الرسول له، فإذا حضر ابتدأه، وإذا غاب افتقده، لِما عرفه منه من الصدق والزهد والشجاعة، فالغفاري جدير بمحبة الرسول وثقته.

فيما هم كذلك إذ جاء بلال الى النبي غاضباً، يشكوالغفاري، لأنه عيّره بلون أمهّ! .. ثم جاء الغفاري لاحقاً وقد ارتسمت على وجهه علامات الكآبة والحزن الشديد .. قال له رسول الله غاضباً: يا أباذر، بلغني بانك عيّرت أخاك بلال بأمه.

ـ نعم يا رسول الله.

ـ يا أبا ذر، إنَّك إمرؤ فيك جاهلية، يا أباذر أرفع رأسك، فانظر أنَّك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود، إلا إنَّ تفضله بعمل.

طأطأ أبو ذر رأسه، وأيقن إنَّه أساء الى بلال، وأغضب رسول الله .. ولابد من تصحيح هذا الخطأ .. اقترب من بلال واضطجع على الأرض، قائلاً: يا بلال، قم فطأ على خدي.

ولكن بلال يحتضن الغفاري، ويسلم عليه ويعفو عنه .. ويلتزم الغفاري الصمت حياءً من رسول الله، إلى أن سأله: لماذا سببت أمه يا أبا ذر؟

ـ كنا نتحاور يا رسول الله، فأغضبني ..

ـ يا أبا ذر، إذا غضبت وكنت قائماً فاقعد، وإنْ كنت قاعداً فاتكيء.

انصرف الجميع الى داره، إلا الغفاري الذي طلب منه الرسول مرافقته الى السوق ليُطيّب خاطره. كان الناس كل منهم منهمك في عمله وتحصيل رزقه، التفت اليه الرسول مخاطباً، يا أبا ذر: ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن، ثقيل في الميزان.

ـ بلى يا رسول الله .. بأبي أنت وأمي ..

ـ الصمت، وحسن الخُلق، وترك ما لا يعنيك.

أحسّ الغفاري، أنَّه بهذه الحكمة الرائعة ادخر في خزائن معرفته درة ثمينة جديدة من درر حِكَم ومواعظ حبيبه رسول الله.

وهما يتجولان في السوق، حيث الناس تشتغل في البيع والشراء، وكسب الرزق، حدثت مشاجرة بين اثنين، فتدخل رسول الله وأصلح بينهما كعادته .. وقال للغفاري واعظا: يا أبا ذر، في السوق يرفع الشيطان رايته فكن على حذر .. يا أبا ذر، آية لو أخذ الناس بها لكفتهم.

ـ وما هي يا رسول الله ؟

ـ {ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لايحتسب} ..

وهما يواصلان سيرهما في السوق، قال الغفاري لرسول الله: زدني من مواعظك يا رسول الله.

ـ يا أباذر: أنت رجل صالح .. وسيصيبك بلاء من بعدي ..

ـ أفي الله يكون ذلك ؟

ـ نعم .. في الله.

ـ إذاً مرحباً بأمر الله.

(زمن) وهو يصغي لحديث الغفاري، استغلق عليه فهم ذلك أو تفسيره. فرسول الله يصف الغفاري بالرجل الصالح، ولكن سيصيبه البلاء من بعده. فلماذا يصبح المؤمن الصالح بعد موت الرسول معرضاً للابتلاء، ويُصاب بالأذى. هل سيعود الناس الى جاهليتهم؟ هل سيعود الظلم من جديد؟ هل يتولى أمور المسلمين من ليس له أهلية القيادة العادلة كما كان رسول الله؟ كيف ينظر رسول الله الى دينه بهذا الإنحدار والتدهور؟ أجبني أيها الصحابي الجليل، وأرحني من سيل الاسئلة التي هجمت على رأسي:

ـ يا أخي (زمن) : لقد صدق حبيبي رسول الله فيما ذهب اليه، فما أنْ فارق الحياة وبكيناه بدمع غزير ولوعة فراق لا تنطفئ، حتى انفرد أغلب الأصحاب الى شؤون دنياهم، وتناسوا أمور آخرتهم، حتى تركوا جثمان النبي بدون تغسيل، ولا تكفين ولا دفن لمدة ثلاثة أيام. وتجمهر القوم في سقيفة بني ساعدة، ليتنافسوا على خلافة النبي من بعده، وكأنهم لا يعلمون أن خليفته من بعده هو ابن عمه ووزيره وأول القوم إسلاماً، وأشدهم دفاعاً عن الرسول وعن الأسلام، علي بن أبي طالب، فتنكروا له، ومنعوا الرسول من تحرير وصيته، حينما طلب منهم أنْ يأتوه بقلم ورقعة ليكتب عليها وصيته، حتى تكون منهاج عمل وخارطة طريق لهم في حياتهم، ولكنهم واأسفاه .. اتهموه بالهذيان والهجر بدل أن يسمعوا منه، وجل خشيتهم أنْ يوثق لهم الخلافة الى أحق الناس بها علي بن أبي طالب، فتكون حجة مكتوبة عليهم لا يمكن نكرانها. مثلما

انكروا الكثير مما قاله الرسول بحق علي. فما أصدق رسول الله وما أنفذ وأبلغ بصيرته وهو يشخّص ما سيجري من بعده.

وأنت يا (زمن) خبرت كل ما حلّ في أمة الإسلام من بعد رسول الله، وما فعله بعض الصحابة، وما فعله خلفاء بني أُمية وبني العباس من ظلم وقهر بالإستئثار بالثروة والمال، فجعلوا بلاد المسلمين مغانم وولايات وممالك لهم وللمقربين منهم، لا تحمل من الإسلام إلا إسمه، أما من يحمل قيم ومبادئ الإسلام الحقيقية ومن تمسك بها، فقد أصبح مطارداً ومنفياً ومحارباً، وأنت شاهد على كل ما حدث خلال حكمهم. والذي فاق ما شهدته أنا في حياتي، ولكم خير شاهد ما تعيشونه في زمنكم الحاضر!!

ـ يا أباذر يا صاحب رسول الله، وصاحب ورفيق ابن عمه على بن أبي طالب، وإنْ كنت في حرج من ذلك، أردت أنْ أسألكم عن موقف الإمام علي، وعدم دفن رسول الله إلا بعد ثلاث ليالٍ ؟

ـ انَّ علياً كان موصّى من قبل رسول الله أنْ يكون حكيماً في تعامله مما سيقع من بعده، أنَّه وهو الصنديد قاهر الأبطال ومجندل الرجال، ما كان يخشى في الحق لومة لائم، ولكنه كان يخشى الفتنة، وشاهد القوم قد تنكروا لأقوال الرسول، وركبوا أهوائهم، وتفرغوا لسقيفتهم، وقد تبعهم الناس وبايعوهم وهم يعلمون أنَّ علياً هو قطب الرحى، وهو الأولى باستلام زمام القيادة، وهو الموصى به من بعد رسول الله ..

ـ ومسألة الدفن يا أبا ذر؟

ـ كما تعلم أنَّ رسول الله كان في دار عائشة، وهي بنت الخليفة الذي اختاره لهذا المنصب جماعة كبيرة من المسلمين، وتشييع ودفن شخصية مثل رسول الله، لابد أن يقوم بها ويشرف عليها كل صحبه ومن يتولى الخلافة من بعده. فانشغل القوم بالسقيفة وضمان البيعة لأبي بكر. فلا يمكن أنْ يتبنى أمور الدفن علي بن أبي طالب وحده، وإنْ كان ابنْ عمه وزوج ابنته، فالرسول هو لكل المسلمين، ومن دواعي تأخير الدفن أيضاً هو إعطاء عامة المسلمين فرصة وشرف الصلاة على جثمان رسول الله.

ـ أيها الغفاري: كيف بايع عليا أبي بكر، وهو الأحق بها؟

ـ يا (زمن) عندما علمتُ باجتماع السقيفة، وما حدث فيها، وما أفرزته من تنصيب خليفة لم يكن بإجماع المسلمين ولا برضاهم، وأنا أعلم أنَّ علياً أحق الناس بها، فكيف يفكر هؤلاء القوم في مبايعة غيره؟ .. وقد أنشغل علي بن أبي طالب وعمه العباس وعدد من بني هاشم للقيام بتغسيل وتكفين رسول الله. وكان العباس عمّ النبي يعلم ما يخطط له القوم فالتفت الى علي قائلاً: أمدد يدك أبايعك، فيقول الناس: عم رسول الله بايع إبنْ عم رسول الله، فلا يختلف عليك أثنان.

ـ أو يطمع يا عم فيها طامع غيري؟

ـ ستعلم ذلك بعد حين يا ابن أخي!

أتيت الى علي والعباس وجماعة من بني هاشم، وأخبرتهم بما حدث في السقيفة .. فالتفت العباس إلى علي كأنه يلومه على عدم أخذ زمام المبادرة قبل غيره:

ـ ألم أطلب منك يا ابن أخي أن تسارع بمد يدك لأبايعك بالخلافة قبل أن يحدث ما حدث ؟ ..

ـ هل أترك رسول الله مسجّى من دون غسل وأذهب أنافس في حُطام دُنيا زائلة.

هكذا كان الحال يا أخي (زمن) وقد أنصرم النهار، وأرخى الليل الحزين بسدوله على الجميع، بين نائح متحسّب صابر، وبين طامع متآمر .. اجتمعنا نحن أنصار علي بن أبي طالب بجوار المسجد، وبادرتهم بالقول:

ـ انَّ علياً هو الأولى بالخلافة، بما علمتم من فضله، وقدمه في الإسلام، وقربه من رسول الله، مما يتوجب تصحيح ذلك الخطأ، وأن نعيد الأمر شورى بين المسلمين جميعهم.

فقال القوم: وكيف نعيدها لعلي ؟ فقلت نحتج عليهم بمثل ما أحتجوا به على الأنصار، من كونهم الأقرب لرسول الله، فإذا كانوا هم الشجرة، فعلي هو الثمرة، فهو الأولى بالخلافة .. أو ليس علياً هو ابن عم رسول الله وزوج

بنته وأول من أعلن إسلامه، وهو من بات في فراش الرسول مضحياً بروحه فداء لرسول الله وانتصاراً لدين الله، ولما لسيفه من دور في تثبيت دين الأسلام، فنسقط ما في ايديهم، ونثبت لهم بطلان بيعتهم لغيره. اقتنع القوم بقولي وقوة حجّتي، ووافقوا على جعل الأمر شورى بين المهاجرين.

يا أخي (زمن) لقد ذهبتُ ومعي من آمن بأحقية علي بالخلافة، وطلبنا منه أنَّ يتولى الخلافة فليس هناك من هو أحق بها منه، وقد بلغ أبا بكر وعمر خبر اجتماعهم بدار فاطمة، فنهض عمر في نفر، وأتجه الى دار فاطمة، وطلب الى علي ومن معه أنْ يخرجوا. فيبايعوا كما بايع الناس، فأبو أن يجيبوا دعوته .. مما جعل الأجواء متوترة، وخطيرة تنذر بالشر المستطير، وبالحدث الخطير، واتخاذ موقف محير فعلاً. فما هو موقفنا بين مغتصب للخلافة، ومنكر لوصايا الرسول ولبيعة الغدير التي كنّا شهوداً عليها في حجة الوداع، وبين صاحب الحق والخليفة الأصلح علي بن أبي طالب؟ .. وكان من مفارقة اجتماع بني هاشم حضور أبو سفيان، الذي ألح على علي أن يمد يده ليبايعه.

ـ وهل كنت يا أباذر ترى صدق هذا الرجل المنافق في البيعة؟

ـ لا يا أخي (زمن) ، لا أنا ولا علي بن أبي طالب ولا من حضر الاجتماع نثق بما أقدم عليه هذا الرجل، ولكنه حاول أنْ يقتنص الفرصة ليقتتل المسلمين فيما بينهم، أنصار السقيفة من جهة، وأنصار علي من جهة

أخرى، ليفوز هو أو أحد أبنائه بالخلافة. فما كان من علي بن أبي طالب إلا أنْ يرده رداً قاسياً: طالما غششت الإسلام وأهله، فما ضررتهم شيئاً، لا حاجة لنا الى خيلك ورجلك.

نزل هذا الرد الشافي من عليّ برداً وسلاماً على قلبي، فقد لجم فتنة الأموي، وكشف كيده وتربصه بالمسلمين من أجل مصلحته، وليس حباً بعليّ وأحقيته في الخلافة.

وجدتُ علي بن أبي طالب مطرقاً رأسه يفكر في هذا الأمر، التف إليّ: ما هو موقفكم مما حدث؟ هل أنت وجماعتك على العهد؟

ـ أنت والله أمير المؤمنين حقاً وصدقاً، وأنت والله أحق الناس وأولاهم بالنبي، هلم بنا نبايعك فوالله لنموتن قدامك.

ـ يا أبا ذر: لا أشك في صدقك وإخلاصك، ولكن الأقوال شيء والأفعال شيء آخر، إن كان النفر ممن معك على العهد فاغدو عليّ غداً محلّقين .. ولكن للأسف لم يأته في الصباح إلا أربعة: أنا والزبير والمقداد وسلمان، وكذلك كان شأننا في اليوم التالي واليوم الذي بعده.

أطرق علي مفكراً محتسبا متفكرا بما حدث، بينما هو كذلك رفع صوت المؤذن: أشهد أنْ لا الله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أنَّ محمدا رسول الله، أشهد إنَّ محمدا رسول الله ..

التفت علي الى فاطمة قائلاً: أتحبين أنْ يزول هذا النداء من الوجود يا بضعة الرسول ؟

ـ لا يا أبا الحسن.

ـ إذن سأبايع.

وبذلك غلب صوت الحكمة، ومصلحة نصرة دين الله، على المصلحة الشخصية، وتفهم الواقع القائم فعلاً .. خرجتُ بمعية علي والعباس والزبير والمقداد وعمار وحذيفة وانطلقنا الى حيث أبو بكر، فبايعناه، وقد مدّ لنا يده للبيعة، معاتباً ومتهماً كل منا بصفته بحجة أنه كان يحاول شق صفوف المسلمين ويعمل الفتنة ...

ـ وماذا حدث بعد أن بايعتم الخليفة، أيها الصحابي الجليل ؟

ـ صعد أبو بكر المنبر، وأخذ يوعظ الجميع بالتقوى ووحدة الصف من أجل نصرة دين الله، ووفاء لرسول الله، متناسياً انَّه أول من خان وعد وعهد ووصية رسول الله، وقد تقمّص الخلافة دون وجه حق.

وهنا عادت الذاكرة بـ(زمن) وهو يقرأ إحدى خطب علي بن أبي طالب، مما سطرته كُتب التاريخ: "أما والله. لقد تقمصها ابن أبي قحافة، وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليَّ الطير. فسدلت دونها ثوبا، وطويت عنها كشحا، وطفقت أرتئي

بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا"

ثمّ بادر (زمن) إلى سؤال الغفاري: هل كنت حاضرا في غدير خم، حيث أعلن رسول الله بأن علي بن أبي طالب هو خليفته من بعده؟

بانت على وجه الغفاري علامات متناقضة، بين الفرحة والبهجة، بين الحسرة والألم، مما أثار تساؤلي عما يحدث له فأجاب بعد جهد:

ـ والله يا أخي كان هذا اليوم يوماً عظيماً عندنا نحن أصحاب الرسول وأنصار علي بن أبي طالب، حيث أحتفل أهل السماء وأهل الأرض بهذا العيد الكبير، فقد نزلت آية التبليغ على رسول الله، بعد عودته من حجّ البيت، بمعية علي بن أبي طالب بعد إن التقى علي بالنبي قبل الحج وبصحبة ٣٠٠ فارس قاموا بفتح اليمن الذي أسلم على أيديهم، حيث رافقه للحج ومن ثم رافقه عند العودة، وقد بلغ عدد الحجيج أكثر من ١٣٠ ألف حاج وكان ضمن الموكب أغلب الصحابة .. خلال مراقبتي ومصاحبتي لرسول الله، كنت ألاحظ علامات غير طبيعية على وجه رسول الله، حيث كان يتلالأ نوراً وهيبة، وكأنه يحمل خبراً عظيما سيعلنه على الحجيج. وصدقت فراستي، فقد نزلت عليه آية التبليغ: {يَا

أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس}

في يوم الخميس ونحن في الثامن عشر من ذي الحجة، وكانت أوائل حشودنا تقترب من الجحفة، أمر رسول الله أن يرد من تقدم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان .. ولمّا أجتمع الناس عند غدير خم نودي بصلاة الظهر فصلى النبي بهم، فلما أنصرف من صلاته قام خطيبا على أقتاب الأبل وأسمع الجميع قائلاً:

ـ "أيها الناس، إني أوشك أن أُدعى فأجيب. وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، ثم قال: يا أيها الناس ألم تشهدوا أن لا إله إلا الله- وأن محمداً عبده و رسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن البعث حق من بعد الموت- قالوا: اللهم نعم ..

قال: اللهم اشهد، يا أيها الناس إنَّ الله مولاي، وأنا أَولى بالمؤمنين مِن أنفسهم، ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، و عادِ من عاداه، .. أيها الناس إني فرطكم وأنتم واردون عليَّ الحوض، وحوضي أعرض ما بين بُصرى وصنعاء فيه عدد النجوم قدحان من فضة، ألا وإني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما حتى تلقوني.

قالوا: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله، و طرف في أيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا و لا تذلوا. والثقل الأصغر عترتي أهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير، أنهما لا يتفرقا حتى يلقياني، وسألت الله لهما ذلك فأعطانيه فلا تسبقوهم فتضلوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فهم أعلم منكم."

وقبل أن يتفرق هذا الحشد الكبير عن رسول الله، نزل الوحي بقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} . وطفق الصحابة يهنئون علي بن أبي طالب بأمرة الخلافة، وممن هنأه في مقدّمة الصحابة عمربن الخطاب: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

جلس رسول الله في خيمته وأمر عليّاً أن يجلس في خيمة له بإزائه، وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنئوه بالمقام، ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين،وكان من الحضور كل من: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعائشة بنت أبي بكر، وسلمان الفارسي، والزبير بن العوام، وجابر بن عبد الله الأنصاري، والعباس بن عبد المطلب، وأبو هريرة، وطبعاً كنت أنا من الحاضرين ومن شهدها مع جمع المسلمين .. ففعل الناس ذلك كلهم، ثم أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممن معه أن يدخلن عليه، ويسلمن عليه بإمرة المؤمنين ففعلن.

وقد كان عدد الحضور يربو على العشرة آلاف شهدوا الوصية والبيعة.

وقد عمّ الفرح كل الجموع بهذه البيعة لما يعلمون من أحقية، وعدل، وحكمة، وشجاعة علي، أما أنا فكدت أطير من الفرح لهذه الوصية

الإستحقاق على الرغم من حزني والمي من سماع خطبة رسول الله وقرب رحيله الى الرفيق الأعلى، حمدت الله على فضله، وعلى قدرته، وعطفه على عامة المسلمين، وأبلاغه رسوله الكريم أن يستخلف من بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فمن أولى منه بالخلافة والولاية وهو باب علم مدينة الرسول ، وسيف الحق والعدل، وأكثر القوم زهداً وعطفاً على الفقراء والمستضعفين.

والله يا (زمن) لقد أصابني الذهول حينما علمت أن القوم وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب يبادر الى التنصل من بيعة علي ويبايع أبي بكر، وقد سلط سلوكهم ممن كانوا شهودا على بيعة غدير خم، ما عدا عصبة قليلة وأنا منهم تشبثوا بالبيعة لعلي بن أبي طالب، ولم نبايع لأبي بكر حتى بايع علي، وحدث ما حدث بعد ذلك من تداول الخلافة بين القوم، إذ أوصى أبو بكر لعمر بن الخطاب من بعده، ومن ثم وصلت الى عثمان ..

ولاحظ (زمن) أن الغفارى بدا عليه التوتر وأن كلماته تخرج من فمه متسارعة، فطلب منه أن يكف قليلاً عن الكلام ويأخذ قسطه من الراحة، غير أن الغفاري طلب من (زمن) مواصلة طرح الأسئلة، فهي سلوى له من هذه الوحدة والغربة والعزلة:

ـ ألا ترى يا سيدي الغفاري أنَّ ما حصل في يوم السقيفة، يعد أول شرخ حدث في مسيرة الأسلام، من حيث نكث العهد، والاستئثار بالسلطة، سواء بالحيلة أو بقوة السيف، وقد تصدّع الإسلام وتشرذم الى فرق ومذاهب، كل يدعي أنه هو الأحق بالخلافة، فجرت أنهار من الدم، وتم تفعيل سلوك الغدر والسم، والى يومنا هذا، وإذا كنت شهدت مقتل

عمر، فإنك لم تشهد مقتل عثمان، ثم مقتل حبيبك علي بن أبي طالب، واستمر السيف ونزيف الدم، فلم يراعوا حرمة لأحد، حتى أنهم قتلوا حفيد رسول الله الحسن بن علي بالسم، وقتلوا حفيده الثاني الحسين بن علي وأهل بيته، وسبواعياله، واستمر ظلم وقمع وقتل العلويين وأنصارهم لحين التاريخ ...

وإني لأستذكر يا أخي الغفاري ما قاله علي بن أبي طالب في إحدى خطبه، محذّراً مما سيفعله بني أمية: "والله والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه، ولا عقداً إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان، باكٍ يبكي لدينه، وباكٍ يبكي لدنياه، وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب أتابه، وحتى يكون أعظمكم عناء أحسنكم بالله ظنا، فإن أتاكم الله بعافية فاقبلوا، وإن إبتليتم فاصبروا، فإن العاقبة للمتقين"

والله ياسيدي الغفاري لقد كان علي بن أبي طالب يمتلك حاسة في غاية الدقة في التنبأ وقراءة مستقبل الأمة، وكأنه يعيشها ساعة فساعة، والتاريخ يحدثنا بكل ما حدث وما زال يحدث.

- صدقت يا أخي (زمن) وهذا ما تنبأ به رسول الله وخليفته وابن عمه علي بن أبي طالب، فحينما أخبرني الرسول بأني رجل صالح وسوف ألقى الأذى من بعده، فهو ذكر صفة كل من يتمسك بمباديء الإسلام الحق، في العدل والمساواة والمحبة والإيثار والزهد، سوف يحارب ويلقى الأذى حد الموت بعده، وهذا ما تشير اليه أنت يا أخي (زمن) وأنت

الشاهد الحق، على ما حدث وما زال يحدث، وإني لأشعر وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً بأني ما زلت منفياً.

وللأسف كان عمر بن الخطاب على الرغم من زهده وأولويته في الإسلام، لكنه من أكثر صحابة رسول الله في الاعتراض على تعاليمه ووصاياه، بدءاً بعدم إعطائه القرطاس لكتابة وصيته وهو على فراش الموت، ومن خلال التنكر لأحقية علي بن أبي طالب في الخلافة وهو ما أوصى به رسول الله في أكثر من حدث، ومخالفة وصيته أيضا لقيادة أسامة بن زيد للحملة على قضاعة وإنهاء ردتها وتمردها على تعاليم الإسلام بدعوى صغر سنه، وكأنه يشكك في قرار رسول الله وحكمته وفراسته وصواب أختياره لأسامة بقيادة الجيش، وكان أبو بكر أكثر وفاءً من عمر لوصايا رسول الله وأنفذ وصية رسول وقيادة أسامة للجيش وقد تكلل بالنصر المؤزر من دون خسائر ..

يا أخي (زمن) انت الحَكَم والمحكّم والحاكم على ما جرى ويجري، وما كان وما يكون ولابد للحقائق أنْ تظهر ولو بعد حين، مهما حاول أنْ يزوّر المزورون، وأن يفتري المفترون.

- يا أبا ذر، أريد رأيك في قضية حسّاسة قرأت عنها كثيراً في كتب التاريخ، وفيها أخذ ورد، ولكني أريد ان أسمعها من فمك مباشرة، وأنت الشاهد العدل، الذي لا يختلف عليك اثنان. أريدك أن تحدّثني عن

قضية مصادرة أرض فدك من قبل أبي بكر وعمر بن الخطاب من فاطمة الزهراء بنت رسول الله وقد منحها لها رسول الله في حياته ؟

- تعلم يا (زمن) أني لست من أنصار التملك لا للمال ولا للعقار ولا للدواب، ولكن في هذا الشأن أقول إنَّ رسول الله لم يصادر من أحد ملكه، وإنَّ أمره بالزهد وبذل ما في اليد لمساعدة كل محتاج، وأنَّ فاطمة الزهراء هي بنت رسول الله وأعلم بما يريد ويرغب الرسول والأقرب اليه في معرفة ما قال وما أوصى به، ولو علمت انَّه قال ما أدعاه أبو بكر وعمر بن الخطاب بأنَّ معشر الأنبياء لا يورثون لما تأخرت لحظة في الإستجابة لما أراد .. ثم إنَّ فدك عندما وهبها الرسول لأبنته أصبحت مُلكاً لها وليس ملكاً للرسول، بحيث تعتبر أرثاً للرسول. فأنت حينما تُملّك أحدهم مُلكاً أو حينما تمنحه مالاً أو عقاراً خرج من ملكيتك الى ملكيته، ولا يحق لغيرك مهما كان يطالب بأعادته اليك وأنت لم تدع ذلك خلال حياتك .. أضف إلى ذلك فإنَّ فاطمة الزهراء وزوجها علي بن أبي طالب وأولادهما كانوا ينفقون ما يملكون وما يحصلون عليه على الفقراء والمساكين والمعوزين والسائلين وأبناء السبيل واليتامى والأرامل، وآثروا الآخرين على أنفسهم، وهذا واقع لا يستطيع أحد أن ينكره على بيت علي وزوجه وبنيه. الخلاصة في ذلك أن هذه المصادرة كانت باطلة وغير شرعية، وهو تعدّ واضح على إرادة رسول الله ومخالفة صريحة له.

- وكيف أمضيت وقضيت فترة خلافة أبي بكر يا أبا ذر ؟

- يا (زمن) أنت تسألني عما تعرف، فأنت كما قال القائل: كم سائل عن أمر وهو به عالِمُ.

- نعم يا سيدي الغفاري، أنا أعرف تماماً ما كنت أنت عليه، ولكن لتطلع الأجيال على ما كنت عليه من فمك مباشرة، وغرضي أن تكشف الحقائق، ممن حاول الحكام وأهل السلطة حجبها عن العيون ..

- يا أخي (زمن) أيّها الشاهد العارف على مرّ العصور، سأقول وأنت شاهد لا تخفى عنك خافية والله على ما أقول شهيد. بالتأكيد كنت أعيش غصّة حرمان قدوتي ورفيق مسيرتي، ومثالي في الزهد والصدق وأول من دلّني على رسول الله وشهد أسلامي. أول الناس إسلاماً، علي بن أبي طالب، ولكني بعد البيعة كتمت غضبي وعدم رضاي وأخترت ما أختاره أمير المؤمنين علي وصحبه، وشاركت فيما قام به أبي بكر في لجم ردة المرتدين ومن حاول التمرد على دين الله وأحكامه بعد وفاة رسول الله، كذلك كنت راضياً على سلوك أبو بكر في الزهد، ومحاسبة من يحاول أنْ يستأثر بالمال والجاه مستغلاً منصبه وقد كان مثلي وقدوتي علي بن أبي طالب منسجماً مع ما كان يحكم به أبو بكر، وكذلك لم يبتل أبو بكر بفيض من المال في عهده فكانت موارد بيت المال محدودة، وكان توزيعه لأموال بيت المال مقبولاً.

وكذلك كان الحال مع خلافة عمر الذي أوصى بها له أبو بكر، مع إستمرار قرارهم باغتصاب حق علي في الخلافة، وكذا كان، ولم يعارض علي هذا

الخليفة وحرص على صيانة وحدة المسلمين وعدم تشتت صفوفهم، وقد كان عمر عادلاً في توزيع الثروة، على الرغم من أنه فضل بعضهم على بعض في العطاء اعتماداً على سبقهم في الإسلام وقربهم من رسول الله. وقد كان زاهداً في حياته على الرغم من بداية تدفق الأموال على بيت المال نتيجة الفتوحات الأسلامية ومنها فتح العراق وهزيمة مملكة كسرى ملك الفرس، فلم تحدث لي أية مشادات في زمن عمر بن الخطاب، وقد راقني جداً محاسبة الخطاب لواليه على البحرين أبو هريرة، وما علم منه من امتلاك الخيل والمال، فاستدعاه وحاسبه، ورد الى بيت المال ما كان فائضاً عن حاجته .. قررت أن أصطحب عائلتي وأتوجه الى الشام، وكما هو معلوم كان عمر يستعين بالإمام علي بن أبي طالب في ما يتعرض له من قضايا مسائل ومشاكل شائكة حتى سمعته يقول في إحدى المرات: لولا علي لهلك عمر .. ورأيت من عمر هذه الحادثة: جاءه أعرابيان يختصمان فقال لعلي: اقضِ بينهما يا أبا الحسن، فقضى علي بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضي بيننا، فوثب إليه عمر وأخذ بتلابيبه، وقال: ويحك ما تدري من هذا؟ هذا مولاي ومولى كل مؤمنٍ ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن.

وأيضاً سمعت ممن شاهد هذه الحادثة: لمّا بدأ عمر بن الخطاب بالحسنين في العطاء قال له ابنه: قدَّمتهما عليَّ، ولي صحبة وهجرة دونهما؟ فقال: أسكت لا أمَّ لك، أبوهما والله خير من أبيك، وأُمَّهما خير من أمِّك.

وهناك الكثير مما روي حول شهادة عمر بن الخطاب بعلم وحكمة وفضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

ـ يا سيدي الغفاري: إذا كان هذا قول عمر بن الخطاب بحق علي بن أبي طالب، فلماذا أغتصب هو وصاحبه الخلافة منه ؟

ـ يا (زمن) إنَّها السلطة واغراءتها، وحُب التشرّف بخلافة رسول على أمور المسلمين من بعده، وبقايا عصبية جاهلية لدى القوم، فكيف تكون النبوة والخلافة لبني هاشم. كما تذرعوا بحداثة عمره، وميله الى آل عبد المطلب من بني هاشم .. وكما ترى كلها دعاوى باطلة وغير مقنعة.
ـ اتفق معك يا أخي الغفاري، فإني لاطلاعي على التاريخ وعلى الكثير من المؤلفات والمعلومات التي لم تطلع عليها أنت، والتي حدثت بعد غيابك عن الحياة .. فقد سجل التاريخ حكمة وعلم علي بن أبي طالب حينما تولى الخلافة، إذ وثّق التاريخ وثبت سيرته وسلوكه وكيف تصرّف في الأموال بما ضمن حقوق الناس، وموقفه من أخيه عقيل حينما طالبه بزيادة عطائه: والله لقد رأَيتُ عقِيلًا وقَد أَملقَ حتّى استماحنِي مِنْ بُرّكُم صاعاً، ورأَيتُ صبيانه شُعثَ الشّعور غُبر الأَلوان مِنْ فَقْرهِمْ، كأنما سُوّدتْ وُجُوهُهمْ بِالعِظْلِمِ، وعاودنِي مُؤكّداً وكرّر عليَّ القولَ مُردّداً، فَأَصغيتُ إِليه سمعي فَظَنَّ أَنّي أَبِيعُه ديني وأَتَّبعُ قِيَادَه مُفَارقاً طَرِيقَتي، فَأَحميتُ له حديدةً ثُمَّ أدنيتُها مِنْ جِسمه لِيعتبر بها، فَضجّ ضجيجَ ذي دنفٍ مِنْ أَلمها وكادَ أَنْ يحترقَ مِنْ مِيسَمِها فَقلتُ لَه: ثَكِلَتكَ الثَّواكلُ يا عقيل، أَتئنُ مِنْ حديدةٍ أَحماهَا إِنسانُها لِلَعِبه وتجُرّني إِلى نارٍ سجرها جبّارها لِغضبه، أتئِنُ مِنَ الأَذَى ولَا أَئِنُّ مِنْ لظى ..

فها أنت ترى يا أخي الغفاري ما فعل علي بن أبي طالب مع أخيه عقيل، على الرغم من فقر حاله وبؤس عياله، ولكنه طلب فوق حقه كبقية المسلمين، فأين انحيازه لآل عبد المطلب كما يقولون؟ .. لا يسعنا إلا ان نقول: لا الله إلا الله، فهو الحاكم العادل الحكيم، والعالِم بما في القلوب .. وسلام على عليّ و آل علي.

الفصل الخامـــس
محطّة جديدة

ما إن وطأت اقدام الغفاري أرض دمشق، فأدهشه جمال طبيعة الشام، ووفرة محاصيلها، جمال بساتينها وقراها، وطيب ونقاء هوائها، وتنوع وكثرة صنائعها، وهذه من نعم الله على أهلها، مما يفترض أن يعيش أهلها حياة رفاه وسلام ورضا ، ولكن ما لمسه الغفاري غير ذلك، فالناس من مسلمين وغير مسلمين أغلبيتهم يعيشون حياة الفقر والعوز والفاقة، نتيجة سلوكيات والي غير عادل، استأثر بالسلطة والثروة له ولأقربائه ولحاشيته، ليعيش حياة البذخ والتبذير، البذخ في بناء القصور العالية، والبيوت الفارهة، واقتناء البساتين الواسعة، وحياة الترف التي تشبه حياة الملوك من أمثال كسرى وقيصر ...

وصل الغفاري إلى الشام فخفّ اليه من يعرفون فضله وعلمه وزهده، ومن يعرفون قربه لرسول الله .. قصد المسجد ليقيم فيه ويلتقي الناس ويحدثهم بما سمعه من رسول الله مباشرة، وبما يرضي الله ورسوله، وليبصرهم في دينهم وشؤون دنياهم .. وقد سبقت سيرة الغفاري إلى الشام قبل قدومه، إذ سمع الناس بزهد الغفاري، وبساطته، وشحّة ما في يده، فتقدم منه شخصاً قائلاً: يا أباذر ألا تتخذ ضيعة كما أتخذ أبو هريرة، وقد أصبح والياً على البحرين ؟

-وما أصنع بأن أكون أميراً؟ وإنما تكفيني كل يوم شربة ماء أو لبن، وفي الجمعة كيلة من قمح.

ـ بارك الله فيك يا صاحب رسول الله .. أما بلغكم ما صنع أمير المؤمنين عمر، بأبي هريرة ؟

ـ لا.

ـ لقد أحصى الخليفة عمر ثروته، وقال له: استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، فبلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار.

فقال أبو هريرة: كانت لنا أفراس تناتجت، وعطايا تلاقحت.

فقال له عمر: قد حسبت لك رزقك ومؤنتك، وهذا فضل فأدّه.

فقال أبو هريرة: ليس لك ذلك.

فقال عمر: بلى والله أوجع ظهرك، ثم قام إليه بالدرّة، فضربه حتى أدماه. إيت بها. فقال أبو هريرة: احتسبها عند الله.

فقال عمر: ذلك لو أخذتها من حلال، وأديتها طائعا. أجئت من من أقصى البحرين يجبى، الناس لك، لا لله ولا للمسلمين. ما رجعت بك أُميمة إلا لرعية الحُمر ..

يا أخي الشامي: لقد فعل الخليفة عمر ما يرضي الله ورسوله، فعلى الوالي أن يعمل لمصالح الرعية لا لمصالحه.

بينما هم في هذه الحالة جلوس في المسجد يتحدثون، إذ جاء رسول من قبل أمير الشام (حبيبة بن مسلمة) يسأل عن أبي ذر، فوجده في

المسجد يتحدث مع الناس، دخل عليه وقال: قد بعثني مولاي إليك بثلاث مئة دينار لتستعين بها على حاجتك.

ـ أرجعها إليه. أوما وجد أحداً أغر بالله منا؟ .. مالنا إلا ظل نتورى به، وثلّة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها ..

في أحد الأيام، أخذ الغفاري عطاءه، فخرج مع عبد الله بن الصامت، واستصحب معه جارية، وذهبا جميعا الى السوق، وقد تبضعت له الجارية ما يحتاجه وأهله من حاجات، وأعطته الفائض من المال، فقام الغفاري بتوزيعه على الناس في السوق ولم يبق منه شيئا، فقال له عبد الله بن الصامت: لو ادخرتها لحاجة، أو لضيف ينزل عندك.

فقال الغفاري: إنَّ خليلي وحبيبي رسول الله، عهد اليَّ أن أيما ذهب أو فضة أوكيء عليه فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله.

قام الخليفة عمر بن الخطاب بزيارة الشام، ليطلع على أحوال الناس، وسلوك الولاة وأحوالهم مع الرعية .. وكان له لقاء مع الغفاري، فاصطحبه معه، واستمرت رفقة الغفاري مع عمر في جولاته .. راقبه يوما مطرقاً فسأله: ما لي أراك حزيناً كئيباً يا أمير المؤمنين؟

فقال عمر: مالي لا أكون كئيباً حزيناً، وقد سمعت بشر بن عاصم الذي تخلف عن أن يلي صدقات هوازن، يقول لي: سمعت رسول الله يقول: من وليَ شيئاً من أمر المسلمين أُتي به يوم القيامة حتى يُوقف على جسر

جهنم، فإن كان مُحسناً نجا وإن كان مُسيئاً انخرق به الجسر، فهوى فيه سبعين خريفاً ..

فقال أبو ذر لعمر: أوَ ما سمعتهُ من رسول الله ؟

قال:- لا.

قال: أشهدُ أني سمعت رسول الله يقول: من وليَ أحداً من المسلمين أُتيَ به يوم القيامة حتى يُوقف على جسر جهنم، فإن كان مُحسناً نجا، وإن كان مُسيئاً انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفاً، وهي سوداءُ مظلمةٌ. فأيُّ الحديثين أوجعُ لقلبك ؟

قال: كلاهما قد أوجعَ قلبي، فمن يأخذها بما فيها.

فقال أبو ذر: مَنْ سَلَتَ الله أنفهُ، وألصقَ خدَّهُ بالأرض، أما إنا لا نعلمُ إلا خيراً، وعسى أن ولَّيْتَهَا مَنْ لا يعدِلُ فيها أن لا تنجو من إثمها ..

واستمر عمر بن الخطاب في جولته بين الناس، يتفقد أحوالهم، وتعامل الولاة معهم، لينصف المظلوم، ويردع الظالم .. وألقى الخليفة عمر خطبة في جمع المسلمين، ذاكراً لهم فضل الله عليهم، وما منّ عليهم من النصر والفتح المبين، وأوصاهم بالتضامن والمحبة، ونصرة دين الله .. وطلب من بلال أن يقوم ويرفع أذان الصلاة استجابة لطلب الناس ليسمعوا صوته العذب الندي الذي لم يسمعونه بعد رسول الله، فكان لهم ذلك، فانشرحت صدورهم، وبانت البهجة على وجوههم..

واستذكر الغفاري رسول الله، فتكاثفت الذكريات في مخيلته، والأيام الجميلة التي قضاها مع حبيبه وخليله، فسالت دموعه مدرارة حنيناً الى رسول الله، وكذلك بكى الخليفة عمر حتى أبتلت لحيته.

لم ينقطع الغفاري عن اللقاء بالمسلمين صغاراً وكباراً، يحدثهم بالحكمة والموعظة، حديث كله طراوة وصدق وبلاغة، كيف لا وهو أصدق الناس لهجة، وأكثرهم حباً لرسول الله ودين الله، وحماساً لنشر دين العدالة والحق والسلام، يحدثهم عن قيم العدالة والمساواة بين المؤمنين، ونصرة الفقراء والمعوزين، والتكاتف فيما بينهم، فلا فرق بين عبد وسيد، ولا بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وخير الناس من نفع الناس، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ..

وحدثهم الغفاري بحديث الإسراء والمعراج، وسفر رسول الله الملكوتي مخترقاً الحُجُب، وما شاهده، وما قاله وسمعه في رحلة الذهاب والإياب.

في أحد الأيام جاء أحد أصدقاء الغفاري فسلّم وجلس، فسأله الغفاري متى عاد من المدينة ؟ وماذا سمع ؟ وماذا رآى ؟ فأخذ يروي له قصة عمر بن الخطاب مع أبي سفيان.

عندما سمع عمر بعودة أبي سفيان من عند ولده معاوية في الشام، وقع في نفس عمر أن معاوية قد زوّد والده عند عودته بمال. وجاء أبو سفيان مسلّماً، فقال له عمر: أجزنا يا أبا سفيان.

فقال: ما أصبنا شيئا فنجزيك .. فمدّ عمر يده، ونزع خاتماً من إصبع أبي سفيان، وبعثه الى هند زوجه، وأمر الرسول أن يقول لها بأسم زوجها، أنظري الخرجين اللذين جئت بهما فأبعثيهما. فما لبث أن عاد الرسول بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم، طرحهما عمر في بيت المال.

قال الغفاري معقباً على القصة، أعجب والله على هؤلاء، وحرصهم على الدنيا، وسعيهم لكنز الذهب والفضة، والرغبة في إقتناء العقارات والدواب والعبيد وكأنهم لم يسمعوا قول رسول الله في هذه الدنية الفانية: مالي وللدنيا، ما مثلى ومثل الدنيا الا كراكب سار في يوم صائف، فاستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها ..

التفت أحد الحاضرين للغفاري وقال له: ولكن يا صاحب رسول، قال الله تعالى في كتابه الكريم: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا}

فردّ عليه الغفاري: ياعجباً كل العجب للمصدّق بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور، مالنا وزينة الحياة الدنيا، وقد قال تعالى: {والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرأملاً}

الفصل الســـادس
الثورة في الأفق

ورد خبر من المدينة أنَّ أبو لؤلؤة طعن عمر أثناء تكبيرة الصلاة فقتله، وأنَّ عمر ترك الأمر شورى بين ستة من كبار الصحابة (علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيدالله) .. فلما سمع الغفاري بالخبر قال: إنَّها لعلي والله، ما أحد أحق بالخلافة منه ..

عقد الغفاري العزم بالسفر إلى مدينة الرسول، فحمل زوجه وابنته، وقصد المدينة ليكون الى جوار حبيبه وصديقه علي بن أبي طالب، كما كان الى جوار حبيبه رسول الله، وهو طوال الطريق يفكّر بشخصية علي بن أبي طالب، عدله، فضله، زهده، تواضعه، تقواه، علمه، فهو القائل: ما رأيت من ثروة موفورة إلا وبجانبها حق ضايع. والقائل: ما جمعت ثروة إلا من بخل وحرام.

ماذا أذكر فيك يا ابن أبي طالب؟ إسلامك الأول .. إيمانك الراسخ الذي لا يلين .. فداءك لرسول الله ليلة المبيت .. هجرتك بالفواطم على رؤوس الأشهاد .. جهادك وبأسك في سوح الوغى .. زواجك من بضعة الرسول .. قوتك من الشعير .. فراشك من الحصير .. ثباتك على المبدأ فلا تأخذك في الحق لومة لائم .. فهنيئاً للمسلمين بخلافة علي، فهو بحق الأمير ونعم الأمير للمؤمنين الصادقين، ونعم الإمام للمتقين. فكيف يستوي مع غيره من المنافقين الطامعين بالثروة والجاه والساعين الى السلطة؟، سعي الملوك وليس سعي الزهاد المؤمنين بوعد الله، وصدق رسالة رسوله الأمين .. ولكن .. هل سيغصب حقه هذه المرة أيضاً، كما

فعلها أبو قحافة وعمر، وقد صانع الناس أصحاب السطوة والنفوذ وبايعوهم، في حين أحتسب علي وحقن الدماء، وصان وحدة المسلمين ..

في طريقه صادف الغفاري قافلة قادمة من المدينة، وعلم منها أنَّ القوم اختاروا عثمان للخلافة. أثار هذا الخبر الحزن والأسى في داخله، وحدثته نفسه: عثمان بن عفان رجل صالح، لا أشك في ذلك، ولكنه ليس من القدرة والعزم والحزم بحيث يخلف عمر، أو يملأ الفراغ الذي تركه عمر.

ما إنْ وصل الغفاري الى المدينة، حتى قصد دارعلي بن أبي طالب، فوجده محتسباً، مؤمناً بإرادة الله وقدره ومشيئته. وأراد علي بن أبي طالب أن يجبر خاطر الغفاري، فذكّره بأحاديث رسول الله وحكمه ومواعظه. وهدفه ليس الخلافة كمنصب، وإنما من أجل العمل على إحقاق الحق، وردع الباطل والظلم والجور، وتوزيع الحقوق بعدالة بين الناس بدون استئثار، ونشر نور الله في الأرض .. ولكن يبدو أن لقومنا رأي آخر. فالحمد لله أولاً وآخراً ..

ما أن مرّت شهور عدّة على خلافة عثمان، حتى لاحظ الغفاري تغيّر الأحوال في حكم الخليفة، وميله الواضح الى أبناء قبيلته من بني أمية، فأغدق عليهم المال، وأعطاهم المناصب وخصّهم بالمكاسب، كما أنَّ الخلافة تحوّلت الى مملكة، حيث البذخ الواضح، والرفاه والإسراف من

بيت مال المسلمين، مما أثار حفيظة الغفاري وحنقه، فقرر أنْ لا يسكت على هذا الحال، وهذا الإنحراف عن مباديء الإسلام، وعن كلام الله، وعن مسيرة رسول الله، وحتى عن سيرة الخلفاء الذين سبقوه ..

كذلك بدا الثراء والبذخ واضحاً على بعض الصحابة، فبنوا القصور، والبيوت الفارهة، وكنزوا الذهب والفضة، وتملكوا الجياد والإبل، والعبيد والإماء، وبخسوا حق الفقراء والمعوزين من المسلمين وغير المسلمين، فكيف للغفاري أنْ يسكت عن ظلم؟ وهو الذي يحمل وصية رسول الله: قل الحق وإنْ كان مراً، ولاتخشى في الله لومة لائم ..

فكيف يسكت وهو يشهد استشراء الباطل، واستفحال الغنى والترف والبذخ، وعصيان أوامر رسول الله والتنكر لآيات كتاب الله .. كيف يسكت وهو يرى هذه الأرقام الخيالية في كنز الأموال والعقار والعبيد والحيوان .. عثمان بن عفان يمتلك من النقد ١٥٠ ألف، دينار ومليون درهم، وقيمة الأراضي والعقارات ١٠٠ ألف دينار .. الزبير بن العوام يمتلك من النقد ٥٠ ألف دينار وألف فرس وألف عبد، وضياع وعقارات في البصرة ومصر والكوفة والإسكندرية .. طلحة بن عبيدالله دخله اليومي ألف دينار من غلّة المزارع، وشيد في المدينة قصراً بناه بالآجر والجص والساج، وهي مبانٍ نادرة في زماننا هذا .. عبد الرحمن بن عوف يمتلك من النقد بلغ ربع ثمن ماله ٨٤ الفاً، ومائة فرس وألف بعير وعشرة آلاف رأس من الغنم .. زيد بن ثابت قيمة ضياعه مع النقد مائة ألف دينار، وعنده من سبائك الذهب والفضة ما يُكسر بالفؤوس .. سعد بن

أبي وقاص يبتني داره بالعقيق، فيرفع سماكها، ويوسع فضاءها، ويجعل أعلاها شرفات .. وغير ذلك من أسماء وأرقام لم تكن في أي عصر من العصور التي عاشها الغفاري أو سمع بها في جزيرة العرب، ولم تكن كذلك فيمن سبق عثمان بالخلافة، فقد كانت الجادة واضحة والطريق بيّن ..

لم يسكت الغفاري وهو يرى هذا الثراء الفاحش .. فقام وهو الذي لا يخشى خليفة ولا يهاب أميراً، يدعو الناس إلى الزهد ويهاجم عثمان ..

في يوم علم أنَّ عثمان أعطى مروان بن الحكم خُمس خراج أفريقية، والحارث بن أبي وقاص ثلاث مئة الف درهم، وزيد بن ثابت مئة الف درهم .. فجلس في المسجد يتلوا قوله تعالى: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم} ، وبلغ مروان أنَّ أبا ذر يهاجم عثمان، فرفع ذلك إلى عثمان، فنادى مولاه ناتلاً، وأمره أنْ يدعو أبا ذر إليه.

دخل أبو ذر على عثمان، الذي ما كاد بصره يقع عليه حتى قال: يا أبا ذر، إنته عما يبلغني عنك.

ـ وما بلغك عني ؟

ـ بلغني أنَّك تحرّض الناس عليّنا.

ـ وكيف ذلك ؟

ـ إنَّك لا تقرأ في المسجد إلا: {والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم}

ـ أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعيب من ترك أمر الله؟ .. فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان، أحب إلي وخيرٌ لي من أن أسخط الله برضاه.

فبان الغضب على وجه عثمان، ولكنه لم يدر بما يرد عليه، فلزم الصمت، وطال صمته ، فخرج أبو ذر من عنده وهو أكثر غرماً على عيب من ترك أمر الله ..

وقد قابل الغفاري مَثله وقدوته وحبيبه علي بن أبي طالب، حيث يأنس أحدها بالآخر، فهما على منهج واحد وفكر واحد في نصرة دين الله، والإنتصار للفقراء والمعوزين، الزهد، ونبذ الكنز والثروة ..

والسؤال هل من المعقول، أنَّ عثمان ذي النورين، صاحب رسول الله، وأحد المبشرين بالجنة، وخليفة رسول الله ينهى عن ذكر كلام الله؟ .. ويغضب على من يذكّر بكلام الله وحكمه، فلاشك إنَّه انحراف كبير عن أمر الله وسنة رسوله الكريم، ومَن مثل الغفاري لا يسكت على هذا الأنحراف، ولا يسكت عن الإنحراف عن دين الله، حيث الإستئثار بالسلطة وبالمال دون وجه حق ..

بعد مقابلته لعثمان، أخذ عثمان يتحيّن الفرص من أجل التنكيل بأبي ذر، وكان له ذلك، حينما دخل الغفاري الى مجلس الخليفة، حينما كانوا يحصون تركة عبد الرحمن بن عوف، ومعلوم كم هي ملكية عبد الرحمن من الذهب والفضة والدواب .. قال عثمان لأبي ذر يستفهم منه: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال، فإذا أيسر قضى؟

قال أبو ذر: لا يجوز.

فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك.

وهنا ثار الغضب بأبي ذر وهو يرى هذا اليهودي الذي دخل الإسلام لا عن إيمان، ولا عن عقيدة، ولا عن مبدأ ..

ـ يا بن اليهودية، أتعلمنا ديننا؟

التفت كعب الى عثمان لينصره على أبي ذر:

ـ يا أبا ذر قد كثر أذاك، وتولغك بأصحابي. وأرتفع الجدل بينهما واشتد، فقال عثمان محنقاً: إلحق بالشام.

أخذ الغفاري يفكر بأمرعثمان بنفيه الى الشام .. هل يمكن له أن لا يستجيب لأمر الخليفة ولي الأمر، وقد أوصاه رسول الله بالطاعة، وعدم معصية ولي الأمر وإنْ كان عبدا حبشياً، قلّب رأيه ظهراً لبطن، واستقر أخيراً على تنفيذ أمر الخليفة بتغيير موطنه: لا بأس، عسى أن تكرهوا

شيئاً وهو خير لكم، سابقى ثابتاً على طريق الحق والأيمان، والتمسك بطريق العدالة، والدعوة للمساواة بين المسلمين..

بلغ الغفاري الشام، عاد إلى حيث كان قبل مقتل الخليفة عمر بن الخطاب .. في أحد الأيام لاحظ مجموعة كبيرة من العمال تعمل على بناء قصر منيف .. سألهم:-

لمن هذا القصر؟ قالوا: إنه للوالي معاوية بن أبي سفيان .. إذاً هذا هو قصر الخضراء الذي سمعت عنه، ينفق في بنائه أموالا ضخمة من أموال المسلمين، بينما يعيش الكثير من المسلمين في أشباه خرائب لا تليق بحياة البشر ! ..

اتجه الغفاري وهو حالة الغضب الى معاوية وخاطبه: يا معاوية إنْ كانت هذه الأموال التي تبذرها من مال الله، فهي الخيانة، وإنْ كانت من مالك فهي الإسراف..

وفي أحد الأيام وهو في طريقه إلى المسجد، التفّ عليه عدد من المسلمين، يشكون معاوية، حيث لم يعطيهم استحقاقاتهم وقد حال الحول، وتكرار القول، شاكين عوزهم وفاقتهم وحرمانهم من الله، وها هو يبذل المال في بناء القصور، ويجزل العطاء للمقربين منه .. ازداد من امتعاظ وغضب الغفاري لهذا الحال، وقال لهؤلاء: وا أسفاه على ضيعة الإسلام .. لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله، ولا سُنّة نبيه، والله إني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيا، وصدقا مكذبا،

وأثرة بغير تقى .. يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، ألم تسمعوا بقوله تعالى: {الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} .. يا كانز المال، اعلم إنَّ في المال ثلاثة شركاء: القدر، لايستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت. والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم. وأنت الثالث إن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن. فالله عزّ وجل يقول في كتابه الكريم: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} .. يا كانز المال، ألم تسمع بحديث رسول الله ؟: إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له .. ألم تسمع حديث رسول الله ؟: إنَّ ربي عرض علي أنْ يجعل بطحاء مكة ذهباً، فقلت لا يارب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه، فأتفرغ اليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه، فأحمدك وأثني عليك .. يا كانز المال، اتخذت ستور الحرير ونضائد الديباج، واستمتعت الإضطجاع على الصوف الأذري، فيما كان رسول الله ينام على الحصير. وأختلف عليكم بأنواع الطعام، فيما كان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير .. يا كانز المال، ألا تعلم، انه ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم إعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم إعط ممسكاً تلفاً ..

سُرّ الفقراء بما سمعوا من حديث الغفاري، وهذا القول الجميل، فهو يدعو الأغنياء الى مساعدة الفقراء مما رزقهم الله، ويذكرهم بوعد الله للمحسنين، وعذابه للممسكين البخلاء، ممن يكنزون الذهب والفضة، والذين يبذخون في الفرش والأكل والشراب، متناسين زهد رسول الله، متناسين إنَّ الإستقرارفي الدنيا محال، فهي بين رفاه وبين عسر، فالرفاه يستدعي الشكر، والعسر يتطلب الدعاء..

شاهد أحد عيون معاوية، التفاف فقراء الشام حول الغفاري، فتمتم: إنها الفتنة الكبرى. وذهب مسرعاً ليخبر معاوية بما سمع ورأى قائلاً: إنَّ أبا ذر يفسد عليكم الشام بأحاديث لم يسمعوا بها من قبل، فتدارك الأمر..

أخذ معاوية يفكر في أمر الغفاري، فهو بالتأكيد لا يريد أن يتبع منهجه في العدل والمساواة، وعدم البذخ والإسراف من أموال المسلمين، وهو من يسعى لكنز الذهب والفضة، وتملّك العبيد والدواب والضياع، وهو لا يريد أن يستخدم القوة والشدة لإسكات صوت الغفاري وصحبه من الفقراء، فلا تخفى عليه صلابة الغفاري ولا مبالاته في سلوك طريق الحق والعدل. هل يقدم المغريات المادية؟ وهو يعلم أنَّ الغفاري زاهد في ملك المال والعقار. فما الحيلة إذاً؟

وأخيراً اهتدى إلى محاولة اشراكه في غزوة جديدة عسى أنْ يُقتل، أو على الأقل يبعده عن الشام الى حين، وكان له ذلك في إشراك الغفاري في غزو جزيرة قبرص التي أعد لها، فوافق عثمان على الغزوة وفوّض

معاوية بالإعداد لها، بعدما رفضها عمر بن الخطاب في عهده، وقد استعمل معاوية على الجيش عبد الله بن قيس حليف بني فزارة، ولما سمع أبو ذر الغفاري بالدعوة للغزوة قال: رباط يوم في سبيل الله، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل، لقد دعينا الى الجهاد في سبيل الله، فما علينا الا تلبية النداء ..

صعد الغفاري على ظهر أحد سفن الغزوة المتوجهة الى قبرص، وقد تعرض الأسطول الى هياج شديد لأمواج البحر وثورته، مما أقلق المقاتلين وخطر الهلاك في البحر، ولكن الله أراد لهم النجاة، وكان الغفاري يتلو: {وإذا مسّكم الضر في البحر ضَّل من تدعون إلا إياه} .. وبلغ الأسطول قبرص، وخاض المسلمون معركة ضارية مع جيش العدو، وكتب الله لهم النصر، وأُجبر القبارصة على دفع الجزية ..

عاد الغفاري الى الشام، ليعود عامل قلق يهدد ولاية معاوية، ويكشف بطلان إدارته وسوء تصرفه ..

وقد علم الغفاري من بعض الناس، قولهم: يا أبا ذر، ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله، إلا إنَّ كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين.

ـ أو قد قال ذلك ؟

ـ أجل. إنَّه يقول ذلك كل لحظة.

ـ والله لأعاتبنه، ونهض أبو ذر من فوره الى قصر معاوية، وطلب الإذن بالدخول، ولما دخل هشّ له وبش، ولكن أبا ذر لم يلتفت الى كل ذلك، بل اندفع الى غرضه، وقال: يا معاوية، ما يدعوك الى أن تسمّي مال المسلمين مال الله ؟

ـ يرحمك الله يا أبا ذر .. ألسنا عباد الله ؟ والمال مال الله ؟

ـ فلا تقله.

ـ إذاً سأقول مال المسلمين.

وهم أبو ذر بالإنصراف. فقال معاوية: يا أباذر ما الذي أوجدك علينا ؟

ـ إنَّ أموال الفيء من حقوق المسلمين، وليس لك أن تختزن منها شيئاً. وكان عليك أن تسير بسيرة رسول الله وسيرة أبي بكر وعمر، ولكنك اكتنزت الأموال والعقار لك ولعشيرتك.

ـ انَّما أنا أنفقها في الصالح العام.

ـ إنك لا تريد بعطاياك وجه الله، بل تريد أنْ يقال بأنك جواد، وقد قيل .. يا معاوية لقد أغنيت الغني، وأفقرت الفقير.

ـ يا أبا ذر، إرجع عما أنت فيه، فأنك تقود الناس الى فتنة لا يعلم مداها إلا علاّم الغيوب.

ـ والذي نفسي بيده، لا أرجع حتى يبذل الأغنياء المعروف ..

ولّى الغفاري ظهره لمعاوية وخرج غاضباً .. فكّر معاوية في أمر الغفاري، وكيف يمكنه أنْ يسكته، فكّر بإعطائه المال، هذا الساحر الذي يصنع المعجزات، ويذيب أصلب الإرادات، فنادى على أحد خدمه، وأعطاه صرة تضم ثلاثمائة دينار، وقال له: إلحق الغفاري وسلمه هذه الصرّة. فعل الخادم ما أمر به حتى بلغ الغفاري، ومدّ له يده قائلاً: هذه الصرّة هدية إليك من الوالي معاوية. نظر الغفاري الى اليد الممدودة بالصرّة، وقال: إنْ كانت هذه من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإنْ كانت صِلة فلا حاجة لي فيها، ردها عليه، فلا حاجة لي بها ..

في أحد الأيام قصد الغفاري المسجد، وأخذ يذكّر الناس مرة أخرى بسيرة رسول الله العطرة، وسيرة الصحابة في تلك السنين من عهد رسول الله وعهد كلاً من أبي بكر وعمر، داعياً الأغنياء بعدم كنز الذهب والفضة، وضرورة إنفاقها في سبيل الله، وإيفاء حق الفقراء والمحتاجين من المسلمين، مذكّراً بالعديد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ..

كان الأثرياء يهربون من أي مكان يوجد فيه الغفاري لأنه يحثهم على الزهد، وعدم كنز الأموال، ويذكرهم بما ينتظرهم من عذاب أليم يوم الحساب، وما يفعله معاوية من تبذير المال في بناء القصور، والخدم، والولائم، وإعطاء بني أمية، ومنع فقراء المسلمين منها ..

همس أحد الجالسين بالقرب منه: يا شيخ .. إنك تخوض في معاوية كثيراً فحاذر .. التفت أبو ذر إليه، وقال: اسمع يا هذا: أوصاني خليلي وحبيبي رسول الله أن أقول الحق ولو كان مراً، وألا أخشى في الله لومة لائم، وإني لطالما دعوتُ بدعائه الذي علّمني إياه: اللهم إنّي أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر ..

لا شكّ أنّ ما قام به الغفاري، جرّأ الفقراء لأن يطلقوا ألسنتهم للمطالبة بحقوقهم، من معاوية ومن أثرياء المسلمين ومن كانزي الفضة والذهب، مما نغّص على هؤلاء حياتهم، وفضح ترفهم وملذاتهم وشهواتهم، فاشتكوه إلى معاوية ..

أرسل معاوية بطلبه، فحضر الغفاري مجلس معاوية، وافسح له وأجلسه بالقرب منه، وأمر له بألوان الطعام والشراب. رفض الغفاري الأكل من هذه المائدة الباذخة بما لذّ وطاب مخاطباً معاوية: طعامي كل جمعة صاع من شعير على عهد خليلي رسول الله، فلا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه .. يُنخل لكم الشعير، ولم يكن ينخل، وخبزتم المرفق، وجمعتم إدامين، وأختلف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم في ثوب، وراح في آخر، ولم تكونوا هكذا في عهد رسول الله.

ـ لقد أنقضى ذلك العهد يا أبا ذر، نحن هنا في بلد الأعاجم، فإن لم نظهر أمامهم بالمظهر اللائق، استخفّوا بنا.

ـ أما أنا فلن أغيّر من هيئتي شيئاً، عسى أن أكون أقربكم مجلساً من حبيبي رسول الله يوم القيامة، إذ سمعته يقول ذلك: إن اقربكم مني مجلساً يوم القيامة، من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها .. وإني أرى يا معاوية، ما منكم أحد إلا وقد تشبّث بشيء منها غيري.

ـ يا أبا ذر، لقد اشتكى الأغنياء منك، وقالوا إنك تؤلّب الفقراء عليهم.

ـ إني إنما أنهاهم عن كنز الأموال لقوله تعالى في كتابه الكريم: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم} ، إني إذكرهم بكلام الله وإحذرهم مما ينتظرهم من عذاب شديد.

ـ يا أبا ذر، إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب.

ـ بل نزلت فينا وفيهم.

ـ إني آمرك أن تكف.

ـ والله لا أنتهي حتى توزّع الأموال على الناس كافة.

ـ يا أبا ذر، إذاً هذا فراق بيني وبينك، فحاذر.

ـ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

ساءت العلاقة بين أبي ذر ومعاوية. إذ استمر الغفاري على سيرته، وأخذ يحرّض الفقراء ليحصلواعلى حقوقهم من الأموال، ويطالب الأغنياء

بأداء حقوق الفقراء والمحتاجين، وما فرضه الله عليهم من حقوق وأنْ لايكنزوا الذهب والفضة ..

فيما أخذ معاوية يهدّد أبي ذر الغفاري، وأبلغ الناس الغفاري بنوايا معاوية، ولكنه تجاهله، إذ لا يهاب ولا يهتم بتلك التهديدات، وعندما وصل إلى سمعه تهديدات حاشية معاوية: لقد أعذرمن أنذر، إنك تسير الى حتفك بظلفك. كان يرد عليها بقوله وغير مبالٍ: الموت أحب إليَّ من الحياة.

ساءت أمور الغفاري في الشام كثيراً، فتعرّض إلى السخرية والأذى والتنمّر من حاشية معاوية ومن المقربين منه، فمنعوا عنه المال، وضايقوه في مجالسه، ولكنه لم يضعف ولم يهن، وأخذ يناوئ معاوية جهاراً نهاراً ..

في يومٍ وقف يخطب في الناس: أيها الناس، إنَّ بني أمية يهددونني بالفقر والقتل، فوالله للفقر أحب إليَّ من الغنى، ولبطن الأرض أحب إليَّ من ظهرها .. يا معشر الأغنياء: انفقوا مال الله على عباده ولا تقولوا: يد الله مغلولة. ولا تقولوا: إن الله فقير ونحن أغنياء .. أيها الناس أذكّركم بكلام الله تعالى في كتابه الكريم: {إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم، فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون، إنْ تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه، ويغفر لكم، والله شكور حليم}

وما أن أسدل الليل سدوله حتى غادر الغفاري المسجد الى داره، وهو يسمع صوتا يقول: إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة، انَّما أموالكم وأولادكم فتنة .. ولمّا بلغ الدار دخل مسرعا، فالفى ابنته مسجّاة وبجوارها أمها وقد علا وجهها الإظلام، وغامت عيناها بالدمع. فردد الغفاري الترجيع: إنا لله وإنا إليه راجعون .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنما يولدون للموت ويعمرون للخراب.

استأنف أبو ذر دعوته، وراح يبشّر ويحذّر ويذكّر، وكرّر دعوته للعدل. أما معاوية الذي أرّقه أمر الغفاري، فأخذ يفكّر في التخلص منه والقضاء عليه بأية وسيلة، وحاول أنْ يثبت حب الكنز على الغفاري، فيسقط دعواه بمحاربة الكنز، فدعا رسولاً وأعطاه ألف دينار، وأرسله في جنح الليل إلى أبي ذر ليقول له: أنقذ جسدي من عذاب معاوية، أرسلني إلى غيرك، وإني أخطأت بك .. فأنطلق الرسول، وقابل أبا ذر، وقال له ما لقنه معاوية. فقال الغفاري للرسول: يا بُني قل له والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها. فخاب تدبير معاوية بالنيل من سمعة الغفاري، فالمال لم يبق عنده حتى ليلة واحدة، وبذلك لم يستطع معاوية ترويض الغفاري لا بالتهديد والوعيد، ولا باللين، ولا بالحيلة، ولا بالأغراء، فلا بد له أن يكاتب الخليفة عثمان لينظر في أمره، وبالفعل كتب معاوية الى الخليفة: إنَّ أباذر تجتمع إليه الجموع، وقد ضيّق عليّ، وأعضل بي، ولا أمن أنْ يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله.

كان الغفاري صلباً، لم يهادن معاوية أبداً، إذ خاطبه يوماً في باب قصره الخضراء: أتتكم القطار بحمل النار! اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له، اللهم إلعن الناهين عن المنكر، المرتكبين له ..

وفي يوم ردّ على معاوية رداً قاسياً: ما أنا بعدو الله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدّوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام، وأبطنتما الكفر، لقد لعنك رسول الله ودعا عليك مرات أنْ لا تشبع.

فرد معاوية: ما أنا بذاك الرجل.

فقال الغفاري: بل أنت ذلك الرجل، أخبرني بذلك رسول الله، وسمعته يقول وقد مررت به: اللهم إلعنه ..

وصلت رسالة معاوية عن الغفاري إلى الخليفة في المدينة، فكان جوابه: إنَّ الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها، ولم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح وجهّز أبا ذر إليّ، وأبعث معه دليل، وزوده وأرفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت، فإنما تمسك ما استمسكت.

ما أعجب ذاك الزمان، وما أعجب هذا الفعل، تراب قبر رسول الله لم يجف بعد، حتى عدّ الخليفة الدعوة الى العدل والمساواة، وعدم كنز المال، وعدم الإستئثار بأموال المسلمين بالفتنةّ

فماذا عساك أن تقول حول ما يجري في هذا العصر يا أخي (زمن) حيث امتلك البعض من أدعياء الإسلام، وممن يدّعون أنهم من أتباع علي بن

أبي طالب، أو من أتباع عمر وأبي بكر، وهم يكنزون الذهب والفضة، ويمتلكون مليارات الدولارات، والقصور والفلل والعمارات .. فيما فقراء المسلمين ينامون في العراء، وفي خرائب لا تقي من برد ولا تحمي من حر، ويفتشون عن طعامهم في حاويات القمامةّ. وصدق علي بن أبي طالب وهو يصف حكمهم وحكم أمثالهم: "إضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً، أو متمرداً كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقراً"

ما إنْ وصل كتاب الخليفة الى معاوية، حتى حمل أبا ذرعلى ظهر بعيرعليه قتب يابس ومعه خمسة من الصقالبة، أسرعوا سيرهم، ولم يدعوه يستريح، حتى تسلخت بواطن أفخاذه، وكاد أن يهلك من شدّة الإرهاق والألم، ومن هذا الأذلال والقهر، لا لشيء إلا لإنَّه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وذكّر الولاة وأهل الثراء بما أمر به الله ودعا إليه رسول الله. لا لشيء إلا اإنَّه أمر بالعدل والمساواة، وترك البذخ والإستئثار بأموال المسلمين ..

حتى أنَّ معاوية لم يلتزم بوصية الخليفة بالرأفة واللين مع الغفاري عند حمله الى المدينة ليرى عثمان فيه رأيه.

وهو في الطريق إلى المدينة مع هذا البلاء الذي صُبّ عليه، تذكّر محاورته مع رسول الله: يا أبا ذر، أنت رجل صالح وسيصيبك بلاء من بعدي ..

ـ أفي الله يا رسول الله ؟

ـ نعم. في الله.

ـ مرحبا بأمر الله.

وعند ذلك طابت نفسه، وهانت عليه مصيبته، وأحتمل أذاه وما جرى له لأنَّه بأمر الله ومن أجل مرضاته.

الفصل الســـابع
المواجهة .. المنفى

ما إنْ وصل الركب إلى يثرب، حتى رأى الغفاري المجالس في أصل جبل سلع، فقال: بشّر أهل المدينة بغارة شعواء، وحرب مذكار .. كأنه يستشرف ثورة الجياع ضد الخليفة الذي استأثر هو وتبعه من بني أمية، بالمال والثروة، وخالفوا شرع الله وعدله، وهذا ما حدث بعد حين .. دخل أبو ذر على عثمان وكان عنده علي بن أبي طالب وآخرين من الصحابة، فقال عثمان ساخراً:

ـ لا أنعم الله بك يا جُنيدب .

ـ أنا جندب، وسمّاني رسول الله عبد الله، فاخترت اسم رسول الله الذي سمّاني به على اسمي.

ـ ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك ؟

ـ هؤلاء كنزوا الأموال والعقار، فبشرتهم بمكاوٍ من نار.

ـ أنت الذي تزعم إنَّا نقول أنَّ يد الله مغلولة، وإنَّ الله فقير ونحن أغنياء.

ـ لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على عباده. نصحتك فاستغششتني ونصحت صاحبك في الشام فاستغشني.

ـ كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها، قد أنغلت الشام علينا.

ـ إتبع سُنّة صاحبيك، لا يكون لأحد كلام عليك.

ـ ما لك وذلك؟ لا أم لك.

ـ والله ما وجدت فيَّ عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ظهر الغضب في وجه عثمان، ووجّه كلامه إلى الحاضرين في مجلسه: أشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذّاب، أما أنْ أضربه أو أقتله، فإنَّه قد فرّق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الأسلام .. فقال علي بن أبي طالب: أشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون {وإنْ يكُ كاذباً فعليه كذبه، وإنْ يكُ صادقاً يُصبكُم بعضُ الذي يعدُكُم، إنَّ الله لا يهدي مَن هو مُسرفٌ كذّاب} .. ويبدو أن هذا الكلام استفزّ عثمان، فأجاب علي بكلام عليظ، وأتهم الغفاري بأنه عينٌ لعلي، فأعلظ علي بكلام آخر، وأرتفع الجدل، ودخل الناس بينهما. وأخيراً قال عثمان: إني أحظر الناس أنْ يُقاعدوا أبا ذر أو يكلموه.

بعد ما جرى في مجلس عثمان، استمر الغفاري بدعوته الناس الى العدل، وعدم كنز الذهب والفضة، وفضح من حاد عن مباديء الإسلام ووصايا رسول الله. وهو يحدّث نفسه، هل أنا من أُتهم بالكذب، وأنا من وصفني رسول الله بالأصدق لهجة؟ وهل مثلي من يُهدّد بالقتل؟،وأنا أدعو للعدل والمساواة بين المسلمين، وهي رسالة الأسلام ورسالة نبيه الصادق الأمين. وإن كنت عيناً لعلي، فأنا عين الحق، وعين الله الآمر بالعدل وعدم كنز الذهب والفضة، فإنا لله وإنا اليه راجعون..

ورداً على نصائح ومواعظ الغفاري لأهل يثرب، ودعوتهم للزهد والعدل والتمسك بأمر الله ورسوله، واجه فتى من قريش الغفاري: أما نهاك أمير المؤمنين من الفتيا؟ . فرد عليه الغفاري زاجرا إياه: أرقيب أنت عليَّ؟ فوالذي نفسي بيده لو وضعتم السيف هنا (وأشار الى عنقه) على أن أترك كلمة سمعتها من رسول الله قبل أن تحزوا، لأنفذتها.

وبلغ عثمان أنَّ أبا ذر ما زال يحرّض الناس عليه، وعلى كانزي الذهب والفضة، مما أثار حفيظة الخليفة، من ثورة الجياع وتهديد خلافته، أو مهاجمة من كنزوا المال، ولم يشاركوا الفقراء والمعوزين بأموالهم، وقد أسرفوا في الكنز والتملك. فأرسل إلى الغفاري يستدعيه للحضور أمامه، فقدِم الغفاري الى مجلس الخليفة، وقد وجد عنده كعب الأحبار وبعض المسلمين، فقال عثمان:

ـ يا أبا ذر، ألا تكف عمّا أنت فيه؟

ـ حتى يواسي الأغنياء الفقراء.

فالتفت عثمان الى الجالسين وقال: أرايتم من زكى ماله، هل فيه حق لغيره؟

فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين.

مما أثار غضب الغفاري للرد عليه. ودفع أبو ذر في صدر كعب غاضباً: كذبت يا بن اليهودية، ثم تلا قوله تعالى: {ليس البرّ أنْ تُولّوا وُجُوهكم

قِبل المشرقِ والمغربِ ولكن البرّ مَن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين،وآتى المالَ على حُبهِ ذَوي القُربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرّقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والمُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساءِ والضرّاءِ وحين البأسِ اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} ..

فأجابه عثمان: يا أبا ذر، لا يمكنني حمل الناس على الزهد، ولكن عليَّ أنْ أقضي بينهم بحكم الله، وأرغبّهم في الإقتصاد .

ـ لا نرضى عن الأغنياء حتى يبذلوا المعروف، ويحسنوا للجيران والأخوان، ويَصلوا القرابات.

فقال كعب الأحبار: من أدى الفريضة، فقد قضى ما عليه. فرفع أبو ذر العصا ودفع بها صدر كعب.

وبينما هم على هذا الجدال، إذ أُتي بتركة عبد الرحمن بن عوف من المال، فنصبت البدرة، حتى حال بين عثمان وبين الرجل القائم. فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنه كان يتصدّق، ويقري الضيف، وترك ما ترون. فقال كعب: صدقت يا أمير المؤمنين، وقد كسب طيباً، وأنفق طيباً، وترك طيباً، لقد أعطاه الله خير الدنيا والآخرة.

وحينما سمع الغفاري هذا الكلام من كعب استشاط غاضباً، ورفع العصا فضرب رأسه فشجه، قائلاً: يا بن اليهودية، تقول لرجل مات وترك هذا

المال إنَّ الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، اسمع إذاً ويقيني أنك لم تسمع بها من قبل: لقد خرج رسول الله يوماً نحو جبل أحد وأنا معه، فقال لي: يا أبا ذر، الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال كذا وكذا، عن يمينه، وشماله، وقدامه، وخلفه، وقليل ما هم .. يا أبا ذر، ما يسرني أنّ لي مثل جبل أحد هذا أنفقه في سبيل الله، أموت وأترك منه قيراطين ..
رسول الله يريد ذلك، وأنت تقول يا بن اليهودية أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف.

أستوهب عثمان كعباً شجته، فوهبه، فقال عثمان لأبي ذر: ما أكثر أذاك لي، دُر عني وجهك.

ـ أسير إلى مكة.

ـ لا والله.

ـ إلى الشام.

ـ لا والله .

ـ البصرة.

ـ لا والله، فأختر غير هذه البلدان.

ـ لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتني في دار هجرتي، فما أردت شيئاً من البلدان فسرني حيث شئت من البلدان.

ـ فإني مسيّرك إلى الربذة! ..

حزم الخليفة أمره في شأن الغفاري، ودعا مروان وأمره أن يخرج بأبي ذر الى الربذة، ونهى الناس أن يصحبوه في مسيره أو يشيّعوه، وأمتطى أبو ذر راحلة، وأمتطى مروان أخرى ..

ألقى الغفاري على يثرب نظرة الوداع، مستذكرا أحاديثه مع رسول الله، وأخباره بما سيلقاه من أذى بعده. تذكّر وصية رسول الله له حينما كان معه في يثرب، إذ وجده نائماً في المسجد، فنكته رسول الله برجله ليوقظه:

ـ أراك نائماً يا أبا ذر!

ـ ليس عندي بيت غيره.

ـ كيف أنت إذا أخرجوك منه ؟

ـ ألحق بالشام، فإنها أرضُ الهجرة، وأرضُ المحشر، وأرضُ الأنبياء، فأكون رجلاً من أهلها.

ـ فكيف أنت إذا أخرجوك من الشام؟

ـ أرجع إليه، فيكون بيتي ومنزلي.

ـ فكيف أنت إذا أخرجوك منه ثانية ؟

ـ آخذُ إذاً سيفي، فأقاتل حتى أموت.

ـ لا يا أبا ذر، بل تنقاد لهم حيثُ قادوك، حتى تلقاني وأنت على ذلك.

وهنا التفت الغفاري إلى (زمن) الذي كانت عيناه مغروقتان بالدمع، وهو يواصل كتابة ما يمليه عليه من ذكريات:

ـ يا أخي (زمن) لا شكّ أنك شاهد على مجريات هذا الزمان وكل زمان، فأنظر الى علم رسول الله، وما تنبأ عن حالي، وعن حال الأمة، وحال من يتولى الحكم بعد وفاته، وحال التغيّرات التي حدثت بالفعل .. فما أعظمك يا خليلي يا رسول الله .. هل يعقل يا أخي (زمن) أن من يدعي أنَّه خليفة رسول الله، وممن يؤمن بالله ورسوله، يصف بالكذب من وصفه رسول الله بأنه الاصدق لهجة ؟ ..

وهل يعقل أن يمنع خليفة رسوله والمفترض أنْ يكون أمينا على كلام الله، من يتلو كلام الله في المسجد بحجة الفتنة ؟، فالله هو الذي أشار في كتابه إلى عدم كنز الذهب والفضة، وحرمان الفقراء من حقوقهم، ولستُ أنا يا أخي (زمن) ..

وهنا تحشرجت الكلمات على شفتي الغفاري وهو يلقي على مسامع (زمن) تلك المواقف المحزنة التي مرّت عليه:

ألا ترى يا أخي (زمن) كيف يقرّون باستحقاق علي بن أبي طالب بالخلافة وشهدوا بيعة غدير خم، ولكنهم يغتصبون حقه ؟ ..

ألا ترى كيف احتجوا بآية الزكاة، وتنكروا لآية العفو والكنز؟، حتى يبرروا لأنفسهم كنز الثروات والتهرب من إنفاق المال للفقير والمحتاج، وإنَّ رسول الله وعلي، ومن أتبعهم كانوا يخافون الفضل، ولم يكنزوا شيئاً من الصفراء والبيضاء. زاهدون في اللباس وفي الغذاء ..

مسح (زمن) ما ترشّح من دمع بمنديله قبل أن ينساب بين المآقي، وزفر آهة مختنقة بين الظلوع، وأجاب الغفاري: نعم والله من خلق الزمن والسماوات والأرض، أنا على ذلك لشهيد في هذا اليوم، ويوم القيامة، حيث الحساب واستلام الكتاب .. وإني لأذكّرك يا سيدي يا أبا ذر بما قاله الإمام علي بن أبي طالب عن ظلم بني أمية: "والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلا إستحلوه، ولا عقداً إلا حلوه، وحتى لايبقى بيت مدرٍ ولا وبرٍ، إلا دخله ظلمهم، ونبا به سوء رعيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان، باكٍ يبكي لدينه، وباكٍ يبكي لدنياه .."

والله يا سيدي الغفاري، لقد صدق أمير المؤمنين وولي المتقين في الوصف والتوصيف لهؤلاء الذين انحرفوا عن رسالة الإسلام الحقيقية .. كما أنَّ ما شهدته عبر العصور لا يجعلني أندهش بما يجري في عالم اليوم من قهر وإغتصاب للسلطة، وتحكّم الأقوياء بأحوال الضعفاء، واحتكار المال والسلطة، فيما مئات الملايين من البشر يعيشون الفقر والحرمان

والبؤس والمرض، وما يحصل ليس من فعل الكفار فحسب، بل حتى من قبل من يدعون الإيمان بالله من اليهود والنصارى، والطامة الكبرى من المسلمين، بل وممن يدّعون أنهم من شيعة علي وأنصاره، فيما هم يسلكون مسلك الأمويين! ..

ولا أبالغ إذا قلت لكم: إنَّ حكام الدول الإسلامية اليوم ومن دون استثناء يسيرون على نهج بني أمية، حتى من يدّعون أنهم أتباع علي أو أتباع عمر. فكانوا في تصرفاتهم الدنيوية الفاسدة كأنهم أتباع معاوية وبني أمية أو بني العباس، منذ عصرك يا سيدي الغفاري وإلى يومنا هذا ونحن في القرن الواحد والعشرين ..

لله درك أيها الغفاري الزاهد العابد، ما أحوجنا ونحن في هذا العصر في القرن الواحد والعشرين، لأمثالك وأمثال قدوتك الزاهد العادل علي بن أبي طالب ومن سار على نهجكما!

سمع علي بن أبي طالب بخبر نفي الغفاري الى الربذة، فتبعه هو والحسن والحسين وعقيل أخوه، وعبد الله بن جعفر، وعمار بن ياسر، تتبعوا مسيره حتى لحقوه. عندما أقبل علي ليحادثه حاول مروان أن يمنعه، فحمل علي عليه السوط بين أذني راحلته موبخاً: تنح نحّاك الله الى النار. ثم توجه بكلامه للغفاري مواسياً:

ـ يا أبا ذر إنك غضبتَ للهِ، فارجُ مَن غضبتَ له، إنّ القوم خافوكَ على دُنياهُم، وخِفتهُم على دينك، فاترُك في أيديهم ما خافوكَ عليه، واهرُب

منهم بما خِفتهُم عليه، فما أحوجهُم إلى ما منعتهم، وما أغناكَ عمّا منعوك، وستعلمُ مَن الرابحُ غداً، والأكثرُ حُسّداً، ولو أنَّ السماواتِ والأرضينَ كانتا على عبدٍ رتقاً، ثم أتقى اللهَ، لجعلَ اللهُ لهُ منهما مخرجاً! لا يُؤنِسنّكَ إلا الحقُّ، ولا يُوحِشنّك إلا الباطلُ، فلو قبلتَ دُنياهم لأحبّوكَ، ولو قرضتَ منها لأمّنوك ..

وتكلم عقيل بن أبي طالب، مواسياً الغفاري: يا أباذر أنت تعلم أنا نحبك، ونحن نعلم أنك تحبنا، وأنت قد حفظت فينا ما ضيّع الناس إلا القليل، فثوابك على الله عزّ وجل، فأتقِ الله واعلم أنَّ استعفاءك البلاء من الجزع واستبطاءك العافية من اليأس، فدع اليأس والجزع، وقل حسبي الله ونعم الوكيل.

وتكلم الحسن بن علي بن أبي طالب، مواسياً الغفاري: يا عمّاه إنَّ القوم قد أتو إليك ما قد ترى، وإنَّ الله عزّ وجل بالمنظر الأعلى، فدع عنك الدنيا بذكر فراقها، وشدة ما يمر عليك لرخاء ما بعدها، وأصبر حتى تلقى نبيك وهو عنك راضٍ إنْ شاء الله.

وتكلم الحسين بن علي بن أبي طال مواسياً الغفاري: يا عماه إنَّ الله تبارك وتعالى قادر أنْ يغير ما ترى، وهو كل يوم في شأن، إنَّ القوم منعوك دنياهم ومنعتهم دينك، فما أغناك مما منعوك، وما أحوجهم الى ما منعتهم، فعليك بالصبر، فإنَّ الخير في الصبر، والصبرمن الكرم، ودع الجزع، فإنَّ الجزع لا يغنيك.

وتكلم عمار بن ياسر، مواسياً الغفاري: يا أبا ذر، أوحش الله من أوحشك، وأخاف من أخافك، إنه والله ما منع الناس أن يقولوا الحق إلا

الركون الى الدنيا، والحب لها، ألا إنَّما الطاعة مع الجماعة، والملك لمن غلب عليه، وإنَّ هؤلاء القوم دعوا الناس الى دنياهم فأجابوهم إليها ووهبوا لهم دينهم فخسروا الدنيا والأخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وتكلم أبو ذر شاكراً لهم تلك المواساة: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته أهل بيت الرحمة، بأبي وأمي هذه الوجوه، فإني إذا أراكم ذكرت خليلي وحبيبي رسول الله بكم، ومالي بالمدينة شجن ولا سكن غيركم. وإنَّه ثقل على عثمان جواري بالمدينة كما ثقلت على معاوية بالشام، فسيّرني إلى بلدٍ ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله. والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ..

وعاد مروان إلى يثرب ليخبر عثمان بما جرى من علي بن أبي طالب. في حين رافق عليّ وصحبه الغفاري حتى الربذة. وبعد جلسة وحديث، نهض علي ومن معه ليغادروا. فأحسّ أبو ذر بغصّة الفراق، وضمّ علياً الى صدره، وأنهمر الدمع من عينيه وغمغم: رحمكم الله أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم حبيبي رسول الله.

في يومه الأول في الربذة، ذهب الغفاري للصلاة في مسجدها، فوجد أميرها المعيّن من قبل الخليفة عثمان، وكان غلاماً أسود. فطلب من أبي ذر التقدم للصلاة إماماً وتراجع للخلف، ولكن الغفاري رفض قائلاً: إن حبيبي رسول الله أمرني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً أسود، فتقدم الغلام وصلّى أبو ذر خلفه.

ورجع علي بن أبي طالب وجماعته إلى يثرب، فاستقبله الناس وقالوا له: إنَّ أمير المؤمنين عليك غضبان، لتشيعك أبا ذر .. فكان رده رداً ساخراً: غضب الخيل على اللجم.

أتى المساء وحضر علي مجلس الجماعة، قال عثمان: ما حملك على ما صنعت بمروان، واجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري؟

ـ أما مروان فأنَّه أستقبلني يردني، فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم أرده.

ـ أو لم يبلغك أنَّي قد نهيت الناس عن أبي ذر وتشيعه؟

ـ أو كل ما أمرتنا به من شيء خلاف طاعة الله والحق اتبعنا أمرك!

ـ أقِد مروان من نفسك.

ـ وممّ ذلك؟

ـ ضربت بين أذني راحلته، وشتمته، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك.

ـ أما راحلتي فهي تلك، فإن أراد أنْ يضربها كما ضربت راحلته فليفعل، وأما أنا فوالله لئن شتمني، لأشتمنك أنتَ بمثلها، بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً.

ـ ولم لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت بأفضل منه.

وهنا بان الغضب على وجه علي، فردّ على عثمان:

ـ إليَّ تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟ وأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك.

غضب عثمان وأحمر وجهه، فقام ودخل داره .. أما علي فانصرف، واجتمع إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والأنصار يحاولون تهدئته .. وفي صبيحة اليوم التالي اجتمع الناس الى عثمان، فشكا إليهم علياً:

ـ إنَّه يعيبني، فدخل الناس بينهما، وعادت الحال الى ما كانت عليه، قبل نفي أبي ذر، وقال علي لعثمان: والله ما أردت تشيع أبي ذر إلا لله.

عاش الغفاري في الربذة عيشة الكفاف كما هو حاله دائماً زاهداً، عابداً، صادق القول والفعل .. في منفاه حاول بعض المسلمين حثّه على الثورة وحمل السلاح ضد الخليفة عثمان وهم معه، فرفض ذلك رفضاً قاطعاً، ملتزماً بما أوصاه به رسول الله في إطاعة ذوي الأمر .. وازن الغفاري بين عدم التمرد وحمل السلاح ضد الخليفة، وبين الإستمرار بدعوته للعدالة وعدم كنز الذهب والفضة فلم يهادن في أمر الله ورسوله. وخطب في مكة في موسم الحج: أيها المسلم، تصدّق بمالك، لعلك تنجو من عسرها، إجعل الدنيا مجلسين: -مجلساً في طلب الحلال، ومجلساً في طلب الآخرة، والثالث يضرك ولا ينفعك، لا تريده. اجعل المال درهمين: درهماً تنفقه على عيالك من حله، ودرهماً تقدمه

لآخرتك، الثالث يضرك ولا ينفعك، لا تريده .. أيها الناس قد قتلكم حرصكم لا تتركونه أبداً ..

الفصل الثامن
إيثاري أم اشتراكي ؟

هل كان أبو ذر الغفاري اشتراكياً؟

أراد (زمن) أن يتبصّر في مختلف الأوصاف، والتوصيفات، والتعريفات التي عُرف بها الغفاري، فنظراً لكونه شخصية مميّزة، وقفت عندها كل المذاهب الإسلامية بالاحترام والتقدير، فقلما جاد التاريخ العربي الإسلامي بمثله من حيث قوة الإيمان، والثبات على المبادىء، وعدم الإنجرار وراء المظاهر، ولم يُصب بداء العظمة، ولا بمرض جمع المال، ولا من هواة سكن القصور، ولا من آكلي اللحوم والطيور .. وقد بقي على هذه المبادىء حتى آخر أيام حياته، على الرغم ممّا عاناه من الظلم والقهر والتعنيف والأذلال والتجويع والنفي، فلم يتنازل ولم يهن في دفاعه عن حق الفقراء من مال بيت المسلمين، ولا حقهم في أموال الأغنياء المرفّهين، حتى صدق من وصفه بمحامي الفقراء، ومعارضة ظلم الخلفاء والأمراء والولاة ..

(يا زمن) كيف يمكنك توصيف الغفاري، فهل هو أشتراكي؟ هل هو مشاعي كما يصفه أهل العصر الحديث؟ أي حسب توصيفات الأشتراكيين، وتوصيفات المفكر اليساري العراقي هادي العلوي الذي عدّه أحد أقطاب المشاعية الإسلامية العربية حيث وصفه: أبو ذر الغفاري شأن صاحبه سلمان مناضل اجتماعي على طريقة المسيح بحركة وعي طبقي وحس إنساني لا يشترطان جذراً ثقافياً ..

وأنا أفهم أنَّ كل فئة من هذه الفئات تحاول وتنظر وتفكر، حياة وسلوك أبي ذر الغفاري ليكون من أصحابها، ليكون تراثاً مشرفاً، وسلوكاً مشرقاً، كأحد أفرادها، إنَّه جذراً لفكرها وسلوكها، فهكذا نظرالإسلاميون وقت هيمنة الفكر الإشتراكي، كي يصفوا أنفسهم بالإشتراكية، وأنَّهم سبقوا الإشتراكيين المعاصرين في تبني القيم الإشتراكية، وكذلك فعل الإشتراكيون المسلمون والعرب من الإهتمام الكبير بحياة وسلوكيات وشعارات الغفاري التي تدعو إلى المساواة والعدالة في توزيع الثروة، ليثبتوا أنَّهم يقفون مع الفكر الإسلامي الثوري المعادي للملكية الخاصة المفرطة، وبذلك فهم مع الفكر الإسلامي المدافع عن حق الفقراء والداعي الى تقاسم الثروة العامة والخاصة بين الناس. والتاريخ يروي أنَّ القرامطة أدعوا أنهم علويون يقتدون به وبأصحابه، وكذلك قادة ثورة الزنج، ومعروف ما أدعاه المبشرون لحكم العباسيين باسم العلويين للإنتقام من الأمويين ..

كنت أستثمر كل فرصة تأمل عند أبي ذر الغفاري، لأجالسه، وأحاوره، وأعرف لمن ينتمي؟ ووفق أي منهج فلسفي وفكري يتصرف؟ وعلام يستند في رفعه راية العدل والمساواة؟

يا أباذر هل أنت اشتراكي كما يقول عنك أبناء زماننا في العصر الحديث؟

نظراليَّ الغفاري نظرة استغراب وتساؤل، واستفهام عما أعني بالاشتراكي، فهو لم يلفظ هذه المفردة طيلة حياته، ولم يسمعها في زمانه من أي

شخص، ولم يقرأها في كتاب، ولم ترد في كتاب الله، ولا من أحاديث رسول الله، ولا من قدوته علي بن أبي طالب، ولا من أحد أصحابه، ولاحتى من سلمان الفارسي ..

ـ ماذا تعني هذه المفردة يا أخي (زمن)؟

ـ يا سيدي الغفاري، إنَّها تعرف بالملكية العامة لوسائل الإنتاج، ومنها الأرض، وعدم استغلال الإنسان لأخيه الأنسان، وتدعو الى التوزيع العادل للثروة بين البشر ..

ـ وهذا هو ما أسعى إليه يا أخي (زمن) ، العدالة في توزيع الثروة بين الناس، وعدم استعباد وإذلال الإنسان. كنا في قبيلة غفار نعيش في مستوى معاشي متقارب من حيث الملكية وأسلوب الحياة، وما نمتلك من الأبل والمواشي والدواب، وقد كنا ننظر بعدم الرضا لما يكتنزه التجار من الثروة من فضة وذهب وعبيد وجواري ودواب، فكنا نقطع طرق التجار ونستولي على ثرواتهم ما استطعنا إليه سبيلاً، ومن ثم توزيعها على المحتاجين والفقراء في القبيلة.

- نعم صحيح، فهذا ما قرأناه عنكم فيما سطّره التاريخ. وهذا ما أطلقنا عليه في عصرنا الحديث بالمشاعية الطبيعية الأولى. هذا كان حالكم قبل الإسلام فكيف كان الحال في الإسلام؟

-كما أعلمتك يا أخي (زمن) والمعروف من سيرتي أني عبدت الله قبل ثلاث سنوات من إعلان أسلامي على يد رسول الله، لاني أكن مقتنعاً بعبادة الأصنام، لا من قبيلتي ولا من غيرها، وغالباً ما كنت أتأمل عظمة خلق السماوات والأرض، وتفاهة وعجز الأصنام كحجر لا يضر ولا ينفع، لذلك كنت من المبادرين والسبّاقين إلى قبول الأسلام واعتناقه حالما سمعت بوجود دعوة رسول الله في مكة، وكنتُ أول من حيّاه بتحية الإسلام، وقد جذبني إليه ما يدعو اليه من تسفيه الأصنام، والدعوة الى وحدانية الخالق، والدعوة الى العدالة والمساواة بين البشر، والإنتصار للفقراء والمعوزين والمستضعفين، وخاصة بعد نزول آية: {ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو} ..

فكان الرجل بعد نزول هذه الآية إذا كان له مال من ذهب وفضة أو زرع أو ضرع، نظر الى ما يكفيه وعياله لنفقة سنة أمسكه وتصدق بسائره، وإن كان ممن يعمل بيده أمسك ما يكفيه وعياله يوماً وتصدق بالباقي ..

ـ أتعرف يا سيدي الغفاري، إن مضمون هذه الآية مطابق تماماً لمقولة (من كلّ حسب عمله، ولكلّ حسب حاجته)، وهو المبدأ الذي يفترض السير وفقه في الاشتراكية أعلى مراحلها، طبعاً لم يطبق في كل التجارب الإشتراكية في عالمنا المعاصر .. فما أعظم ما ذهبت إليه آيات القرآن الكريم قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة.

ـ نعم يا أخي (زمن) هذه عظمة الأسلام وما ورد في أحكامه، وأضيف الى ذلك آيات أخرى، ومنها هذه الآية التي لطالما رتلتها جهاراً نهاراً أمام أسماع الذين استأثروا بالمال والعقار: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ، ولو تحقق ما ورد في آية العفو، سوف لن يكون ما ذُكر في آية الكنز، لأنّ المسلم سوف لم يبق لديه فضلة ليشتري ويدخر الذهب والفضة ..

هاتان الآيتان نزلتا كالماء الزلال على قلبي، ففيهما الدعوة الى الزهد، وإلى التعاون بين المسلمين، وإزالة الفوارق بينهم، فلا يبقى سائل ولا يبقى محروم، وهذا قمة ما كنت أحلم به في حياتي وحتى مماتي، وهذا ما كنت أفعله أنا حتى قبل دخولي الإسلام، فكنت لا أبقي عندي شيئاً مما أحصل عليه من غزواتي على القبائل الأخرى، ومن قطعي لطرق التجار وقوافلهم. والآن طالب الإسلام بهذا بآيات محكمات واضحة. كانت هذه الأحكام من أقوى الدوافع التي دفعتني إلى بذل نفسي ومالي وحياتي في سبيل نصرة دين الله وتحقيق العدالة بين البشر.

هاتان الآيتان هما شعاري ومنهجي في رفع راية العدل ومقارعة كانزي الذهب والفضة، وضد كل من يؤثر نفسه على غيره. يمكنك يا أخي (زمن) أن تصفني بالإيثاري حسب توصيفات عصرنا، وليس بالاشتراكي حسب توصيفات عصركم كما تفضلت بذلك ..

أقول لك يا أخي (زمن) في يوم ما كنت جالساً قرب حبيبي رسول الله مع نفر من الصحابة، فالتفت لي قائلاً: يا أبا ذر، إعلم إنَّ بين أيدينا عقبة كؤداً لا يصعدها إلا المخفّون، فقال أحدٌ منهم: يا رسول الله، أمِنَ المخفّين أنا أم من المثقلين ؟، فقال له رسول الله: عندك طعام يوم . قال: نعم . وطعام غد. قال: نعم. وطعام بعد غد. قال: لا. فقال له رسول الله: لو كان عندك طعام ثلاث أنت من المثقلين ..

ـ يا سيدي الغفار، هذا الحديث يدل على أنَّ رسول الله كان يناهض أولئك الذين يكنزون المال مهما كانت كميته، إذا ما زاد عن كفاية ثلاث أيام معيشة للمسلم وعائلته. بمعنى إنَّه لا يكتفي من المسلم بتأدية الزكاة لتطهير ماله، ورفع التكليف عنه .. أحسنت يا شيخنا بهذا التوضيح والبيان .. قُل لي من فضلك، ما قصة فرار الناس منك كما روى لنا التاريخ ذلك ؟

ابتسم الغفاري ابتسامة خفيفة قلما وجدتها على شفتيه في لقائي معه، وأجاب:

ـ في أحد الأيام وكنت أمشي في المدينة، وأتلو آية الكنز بأعلى صوتي كعادتي، كان الناس تفرّ من أمامي، فلقيني رجل عرّف نفسه بأنه الأحنف بن قيس، قال لي: يا أبا ذر، لماذا يفر منك هؤلاء ؟

ـ أنهاهم عن الكنز، وأحذرهم نار جهنم، كما جاءت به رسالة الإسلام وأحاديث رسول الله، ولكن هؤلاء حليت في عيونهم الدنيا الفانية الزائلة، فلا يريدون صدق النصيحة.

وقد علمتُ يا أخي (زمن) أنَّ الخليفة عمر بن الخطاب قال في أخر أيامه: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء. وكم كنت أتمنى على عمر لو طبّق ذلك في خلافته لتكون سُنّة حسنة لمن يأتي بعده.

ـ ألا ترى يا سيدي الغفاري، أنَّ أحد أسباب مقتل عمر، هو خوف ارستقراطية قريش وخصوصاً ممن ينتمون إلى بني أمية على أموالهم وممتلكاتهم من قرار عمر هذا، فنخلص إلى القول أن القاتل فارسياً ولكن المحرّض أموياً، فهو المستفيد من التخلص من عمر الذي عُرف بشدّته وصرامته ومحاسبته وقوة شخصيته، ليتولى الخلافة من بعده عثمان وهو ما عليه من الضعف واللين، فضلاً عن كونه من بني أمية، فكان ما كان ممّا أنت أخبر به منا، ولا ينبئك مثل خبير.

صمت الغفاري هنيهنة، ثم زفر آهة محبوسة بين الأضلاع، وقال: الله أعلم، قد يكون ما قلته صحيح وقد لا يكون، ذلك غيب لم يطلعنا الله عليه، ولا أستبعد أن يحصل مثل ذلك ..

يا أخي (زمن) ، لَم أكن أنا الوحيد الذي رفع هذه الآيات شعاراً، وعاش عيشة الزهد والتقشف، وحالة الإيثار على الذات، فهناك سيدي وقدوتي ابن عم رسول الله، وزوج بضعته فاطمة، الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب، الذي كان يردد: أحب لأخيك ما تحب لنفسك، وأكره له ماتكره لها. ويقول متحسراً متأسفاً: ما رأيت من ثروة موفورة إلا وبجانبها حق

مضيع. وسمعته يقول: ما جُمعت ثروة إلا من من بخل أو حرام .. وهو الذي كان يخصف نعله بيده، وكان قوته خبز شعير، ومدرعته مرقعة، وقد رأيت الكثير من الصفات والمواقف التي كشفت حقيقة شخصيته الفذّة المتعالية على زخارف الدنيا وزينتها، وكانت أقواله وأفعاله ترجمة أمينة وصادقة للآيتين الكريمتين اللتين تحدثنا حولهما. وفي الوقت نفسه كان كريماً معطاءً، لا يدخر المال، لا يرد طلب سائل. خشن الملبس، يفترش الحصير، غذاءه خبز الشعير، لا يجمع صنفين من الغذاء، ولم يكن مزواجاً، فلم يجمع مع فاطمة زوجة أخرى، ولم يتزوج بثانية إلا بعد وفاتها، ترفّع عن كل ذلك على الرغم من قدرته على أن يعيش حياة المترفين لما له من سبق في الأسلام، وما لسيفه من قوة في تثبيت أركان الدين، وقرابته من رسول الله، كان يرقّع ثوبه، ويخصف نعله بيده، وهو الحكيم العليم، والبليغ العظيم، حامل أسرار النبي، وباب مدينة العلم كما وصفه رسول الله.

ولا أكتمك القول يا أخي (زمن) وبحق ويقين، ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلا بثلاث: تكذيبهم الله ورسوله، والتخلّف عن الصلاة، وبغضهم لعلي بن أبي طالب ..

ـ شهادتك يا شيخنا بحق علي بن أبي طالب في محلها، وقد وصلتنا أخبار سيرته بعد أن جاءته الخلافة طائعة متوسلة به، لَم تشهد سيرته بنفسك لتكون من أعوانه الذين يستعين بهم على أولئك الذين ملؤوا قلبه قيحاً، كان يوزع كل ما يأتي الى بيت المال، حتى لا يبقي فيه شيئاً، ووزّع المال

بالتساوي بين كل المسلمين شريفهم وفقيرهم قويهم ومستضعفهم، وهذا ما جعل الذين يكنزون المال ويحبون الاستئثار والمغانم يفرّون منه بل ويقاتلونه بعد أن حرم منهم تلك المغانم الباطلة .. كان مثالاً في الزهد والتقشف، لا يُبقي من المال والعطاء شيئاً له ولا لخاصته من أهل بيته، وربما ستصيبك الدهشة يا شيخنا لو علمت أن علياً وهو خليفة اضطر أن يعرض سيفه للبيع في أحد الأيام ليضمن قوت ليلته تلك إلى أن يأتيه العطاء كبقية المسلمين .. أتعلم يا شيخنا، أنَّ مقولة علي بن أبي طالب: ما رأيت من نعمة موفورة إلا وبجانبها حقّ مضيع. لم يتوصل لمثلها علماء البشرية ومنظّريها ومفكريها، إلا بعد أكثر من ألف عام على يد منظّر الاشتراكية، حيث كانت أعظم وأهم تنظيراته وهي (فائض القيمة)، وهو الجزء الذي يستأثر به الرأسمالي من جهد العامل وهي أساس ثروته، وعلى هذا الأساس بنى نظريته في الإقتصاد التي لم تزل صالحة في القرن الحادي والعشرين .

يا سيدي الغفاري، ما رأيك بالزكاة التي وردت بموجب الآية: {خُذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}، إذ يستدل بعض المفسّرين أن هذه الأية نسخت ما سبقتها من آيتي الكنز والعفو، وأن (من) في الآية هي للتبعيض؟ .. والأخبار التي وصلتنا أنك مع علي بن أبي طالب وأصحابكما، تمسكتم بآيتي الكنز والعفو، ولم تروا أنَّ آية الزكاة تنسخهما، واستمرت دعوتكم الى تحريم الكنز، فما هي مبرراتكم لذلك؟

ـ يا أخي (زمن) أدامكم الله، نعم آية الزكاة نسخت آية العفو وآية الكنز، ولكنهما لم يُحذفا من القرآن، بقيتا وبقية تلاوتهما وهذا يعني عدم إلغاء حكمهما، وآية الزكاة أتت من باب التخفيف عمن استثقل حكم آية الكنز وآية العفو، وعلى وجه الخصوص من أصحاب الثروة والمال، وهنا أنقسم المسلمون الى فئتين:

فئة الأثرياء وتمسكت بحكم الزكاة واحتفاظهم بأموالهم وممتلكاتهم، وفئة الفقراء من المسلمين الذين يرون أنَّ النسخ وبقاء آيتي العفو والكنز في القرآن كتابة وتلاوة لا تلغي حكمهما، ولذلك تمسّكت بحكمها مع علي بن أبي طالب وجمع آخر من المؤمنين، فيما عدّهما بعض الصحابة ومن تبعهم في ذلك أنهما نزلتا بحق أهل الذمة ولا يعنيان المسلمين، وقد تم استغلال آية الزكاة من قبل البعض ممن زادت ممتلكاتهم وثرواتهم في زمن عثمان تبعاً لتوسع الفتوحات والغزوات مما زاد من واردات بيت المال، وتفشى كنز الأموال والعقار، فامتلكوا من الذهب والفضة ما يُكسّر بالفؤوس، ناهيك عن الدنانير والدراهم، والعبيد والإماء والدواب، والقصور والضياع، أي أنَّ أشراف مكة عادوا الى سابق عهدهم في الجاهلية في التملك والتحكم برقاب الناس، فلم يكن عندهم من الإسلام إلا شكله. فليس لنا أن نغض النظر ونسكت على هذا الثراء الفاحش مقابل الفقر المدقع لأغلبية المسلمين ..

حدثني رسول الله يوماً ونحن في يثرب قائلاً: يا أبا ذر، ما يسرني أن لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله، أموت وأترك منه قيراطين ..

إن هذا لدليل قاطع الى رفض رسول الله للكنز. فكيف لي أن اسكت وأغض النظر وقد عهد لي خليلي رسول الله بحديثه: أيما ذهب أو فضة أوكي عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله .

هؤلاء القوم ابتعدو عن تعاليم رسول الله وأسلموا لأهوائهم زمامها، سأروي لك يا (زمن) هذه القصة:

دخلت على عثمان وكنت عليلاً متوكئاً على عصا، وبين يدي عثمان مائة ألف درهم حُملت اليه من بعض النواحي وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم فقلت له: يا عثمان، ما هذا المال؟

ـ مائة ألف درهم حُملت إليّ من بعض النواحي، أريد أن أضمّ إليها مثلها ثم أرى فيها رأيي فقلت:

ـ يا عثمان يا عثمان، أيهما أكثر مائة ألف درهم أم أربعة دنانير؟.

ـ بل مائة ألف درهم.

ـ أما تذكر يوماً أنا وأنت دخلنا على رسول الله عشاء فرأيناه كئيباً حزيناً فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكاً مستبشراً، فقلنا له: بآبائنا وأمهاتنا نفديك، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيباً حزيناً، وعدنا اليك اليوم فرأيناك ضاحكاً مستبشراً. فقال: نعم كان بقي عندي من فيء المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسمتها وخفت أن يدركني الموت، وهي عندي وقد قسمتها اليوم فاسترحت ..

ألا يدل كل الذي ذكرت على أن رسول الله كان يمقت الكنز ويخافه، فاستكثر أن تبقى لديه أربعة دنانير، والقوم يدخرون مئات الآف الدنانير، ويريدون منا أنْ نسكت على ذلك.

ـ صدقت يا شيخنا الغفاري في كل ما قلته، لا نشك في صدقك ونواياك وغيرتك وحميتك على الإسلام الحنيف وتعاليمه وشرائعه، وأنت القائل فيك رسول الله: ما أقلّت الغبراء، وما أظلّت السماء أصدق لهجة من أبي ذر .. ومما يثير العجب والدهشة وأنا أقرأ تاريخكم الخالد وسيرتكم المعطاءة، أن يتنكر لكم بعض الخلفاء والأمراء والولاة، وأنتم أحباب الله ورسول الله وأقربهم اليه، وقد قال رسول الله فيك وفي أصحابك المقربين منك جداً: إن الله عزّ وجل يحب من أصحابي أربعة، أخبرني أنه يحبهم وأمرني أنْ أحبهم، وإن علياً منهم. أبو ذر، وسلمان، والمقداد..

بوركتم يا أخي (زمن) على قولكم ومديحكم لنا، وسيرتنا محفوظة إن شاء الله عند من لا تضيع عنده الودائع، وسيكون لنا موعد يوم الحساب مع أولئك القوم الذين أغراهم المُلك والسلطان، وعادوا الى جاهليتهم، فوهن إيمانهم، وضعفت إرادتهم أمام بريق الذهب، وحسن النساء، وشهوة التملك في دار الدنيا، كأنهم فيها خالدون، فتناسوا آخرتهم ويوم الحساب، يوم العرض الأكبر، يوم عرض الأعمال بين الخلائق .. سمعت رسول الله يقول: مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فأستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها ..

واعلم يا أخي (زمن) لوددتُ أن الله عز وجل خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكل من ثمرها ..

ـ سيدي الغفاري، هناك مسألة شخصية أرغب بكشفها للتاريخ. من المألوف في زمن الجاهلية، كان الرجل يتزوج بأكثر من امرأة، ناهيك عن الجواري والإماء، وقد أجاز الاسلام للمسلم أن يتزوج بأربع نساء، أما أنت فقد أقترنت بامرأة واحدة، وهي أم ذر وهي أمرأة لا توصف بالجمال، والحسن، وجمال الطلعة، فما الذي منعك من الإقتران بأكثر من واحدة ؟

ـ أنا يا أخي (زمن) نذرتُ نفسي للمبادئ السامية التي أتى بها الإسلام، فلم تستهويني كثرة المتع لا من النساء ولا من الأموال والأملاك، فكانت متعتي وسلوتي راية الجهاد في سبيل الله، ونصرة الفقراء والمحرومين، ومحاربة من كنز الذهب والفضة، واستأثر بمال المسلمين، وشعاري في النساء: لأن اتزوج امرأة تضعني، أحب إليَّ من أتزوج أمرأة ترفعني ..

إني يا أخي (زمن) دائم التنقل والترحال سواء برغبة مني أو رغماً عني، فمالي ومال النساء، كما أن رفيقي وقدوتي علي بن أبي طالب لم يتزوج بثانية إلا بعد وفاة فاطمة الزهراء.

ـ شيخنا الغفاري الصحابي الجليل، رغبت أن أعرف رأيك في مسألة تحدث عنها التاريخ كثيراً وتناولتها الأقلام والصُحف سواء بالضد أو مع، وهي مسألة تزوّج رسول الله بأكثر من أربع نساء كما هو محدّد في الشريعة الإسلامية.

ـ يا أخي (زمن)، شريعة الإسلام لم تسمح بتعدّد زواج المسلم بأكثر من أربع نساء في وقت واحد لمن يعدل وقلما يعدل، أما حبيبي رسول الله فهو مستثنى من هذا الحكم بأمر الله، وهذا من خصائصه دون غيره من المسلمين، ولا نشك أبداً أن غرض وهدف رسول الله من تعدّد الزوجات ليس البحث عن الشهوة والمتعة أبداً، وإنما كان ذلك لأهداف اجتماعية وسياسية اقتضتها الضرورة لصالح الإسلام، فهو تصرّف فيه من الحكمة والموعظة ما فيه، تمثّل في البر والإحسان، والرأفة والحماية لنساء الشهداء من الأرامل، وجواز الزواج من كانت زوجة الربيب، أو من كانت ذميّة، أو مصاهرة العوائل التي لها ثقل ووزن اجتماعي في قبيلتها، وغير ذلك مما ندركه أو لا ندركه، فكل زواج بادر إليه رسول الله كان عن حِكمة.

الفصل التاسع
رفيق الدرب

ليس من السهل أن يحتفظ الإنسان الثوري، بمبدئيته، والتزامه بما كان يدعو إليه في ظروف الكفاح السلبي، قبل أن يكون جزء من حكم شارك بفعالية في إقامته، والتاريخ يشهد الكثير من النماذج الذي تخلّت عن شعاراتها السابقة، لتركن الى الراحة والدعة والبحث عن المكاسب والمناصب بعد الإنتصار، إلا من كان مشبعاً فكرياً وعلمياً بهذه المباديء، صادقاً في القول والفعل مع نفسه ومع رفاقه من أجل تحقيق أهداف ثورته ودعوته .. يوثّق لنا التاريخ ويسجل بحروف من نور صدق الغفاري وثباته على مبادئه حتى بعد أن قامت دولة الإسلام، فكانت المناصب والمكاسب ميسّرة لمن يطلبها، ويهو يعدّها مشروعة مقابل ما قدّم من التضحيات ما قبل الأنتصار، ولكن ليس لمثل عالم فطن مثل الغفاري، والذي قال في علم ما لا يعلمه غيره، حينما دعاه عدد من المسلمين الى التمتع بالحياة، ومنها الإستمتاع بالطعام ومعاشرة النساء لما لاحظوا عليه من الزهد والعيش الخشن ..

وصفه أهل هذا العصر الحديث بأنه: مناضل اجتماعي على طريقة المسيح، يحرّكه وعي طبقي وحس إنساني لا يشترطان جذراً ثقافياً ..

وهو الذي قال في علمه الإمام علي:- أبو ذر وعاء مليء علما، أوكي عليه فلم يخرج منه شيئا حتى قبض ..

وهو الذي قال عنه رسول الله: من سرّه أن ينظر الى تواضع عيسى بن مريم فلينظر الى أبي ذر، لم يبق أحد لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذر ..

فليس غريباً أنْ يظل متمسكاً بمبادئه وشعاراته في مساندة للفقراء، ويناصر ويدعم شرائح المجتمع من المعوزين والمقهورين، حتى نال ما نال من التشرد والحرمان وضنك العيش، ومن ثم النفي الى الربذة فمات وحيداً غريباً منبوذاً.

سألت نفسك يا (زمن) بضرورة الكشف عن حياة الزهد والتقشف الذي كان يعيشه الغفاري طيلة حياته، وبذلك لابد من شهادة تلقي الضوء على هذه السيرة من قبل أحد مجايليه ومن المقربين إليه، وقد وقع أختياري على الصحابي الجليل، ممن أخلصوا للإسلام ولرسول الله ولعلي بن أبي طالب، ومن المقربين إلى الغفاري كأنه النسخة الثانية منه .. إنه سلمان الفارسي، الذي كرّمه رسول الله بوسام الإنتماء لأهل البيت بمقولته الشهيرة: سلمان منّا أهل البيت ..

كما شهد بعلميته الإمام علي بن أبي طالب: أدرك علم الأوّل والعلم الآخر وهو بحر لا ينزح ..

وبذلك ستكون لنا جلسات عديدة مع الصحابي المؤمن سلمان، الذي ذكرت الروايات أن النبي آخاه مع أبي ذر الغفاري في يثرب. سلمان هو رفيق طريق الغفاري، جمعهما الكفاح المشترك من أجل نشر راية الإسلام والدفاع عن المستضعفين والفقراء والمعوزين ..

فهو الذي أشار على رسول الله بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب، فأمر رسول الله بحفره فاحتمى المهاجرون والأنصار في سلمان وكان رجلاً قوياً، وافته المنية في بعد وفاة الغفاري بسنتين او ثلاث.

من صفات سلمان الفارسي أنه يُحبُّ العلم والعلماء، فكان عالماً حَبراً، عالماً بالشرائع وغيرها، وكان رجلاً فاضلاً يُحبُّ الفقراء ويُعطيهم، وزاهداً بنفسه وماله ومتقشِّفاً في الدنيا ومعرضاً عنها، وهو كثير الاستبشار والتفاؤل، سُأل علي بن أبي طالب عنه، فقال: ما عسانا أن نقول فيه؟ رجلٌ خُلق من طينتنا، وروحه مقرونة بروحنا، خصّه الله تبارك وتعالى من العلوم بأولها وآخرها وظاهرها وباطنها وسرها وعلانيتها. وقد سمعت رسول الله يقول بحقه: لو كان الدين في الثريا لناله سلمان. وقال: سلمان منّي، مَن جفاه فقد جفاني، ومَن آذاه فقد آذاني. وقال: الجنّة تشتاق إليك يا علي، وإلى عمّار، وسلمان، وأبي ذر، والمقداد ..

فهل تجد يا (زمن) من هو أفضل وأصدق من هذا الصحابي الجليل لتسأله عن رفيقه في رحلة الكفاح ونشر راية راية الإسلام، الغفاري العظيم، هذا الذي عشقته وعشق سيرته وطويت العصور لتلتقي به وتستمع لكلامه ..

ها هو سلمان يتولى حُكم المدائن أميراً، فإذا هو جالس على كرسي من جريد، وإذا خوص بين يديه يحوكه، تقدمت وألقيت عليه تحية الإسلام، فرد بأحسن منها: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبا بك يا أخا الإسلام، تفضل أجلس .. من أنت رحمك الله؟ .. وماذا تطلب؟

ـ شكراً لكم سيدي سلمان، أنا (زمن) رفيق الماضي والحاضر والمستقبل، ورفيق التاريخ والحوادث والأجيال عبر العصور.

ـ أهلا وسهلا بك يا أخي (زمن) ، ما الذي أستطيع أن أقدمه لكم؟ وأنت بما وصفت به نفسك!

ـ يا سيدي، مَن حدّثوني كانت أحاديهثم مختلفة، منهم من يمدح ومنهم من يقدح، فكل منهم يتكلم على هواه، وأردت أن أعرف الحقيقة من منابعها، وأنا مقتنع أنك من أنقى وأصدق منابعها كما وصفك رسول الله، وكما وصفك ابن عمّه علي بن أبي طالب، فأنت والغفاري من نسيج واحد، وكيف لا وقد آخى بينكما رسول الله في يثرب؟ فأنت يا سيدي من أقرب الصحابة إلى أبي ذر، وأكثرهم معرفة به، فلو تفضلتم وتحدثتم للأجيال وللتاريخ عن زهد الغفاري سنكون لكم من الشاكرين.

ـ على الرحب والسعة، يسعدني كثيرا أن استذكر وأتحدث عن رفيق الطريق حبيبي الغفاري، وهو القريب من رسول الله، ومن علي بن أبي طالب. ومن دون شك أنك يا أخي (زمن) وبما لك من تتبّع وتقصّي التاريخ، تعلم بما قيل من قبلهما بحق هذا الصحابي المؤمن الجليل.

أتعرف يا أخي (زمن) ما مدى أن يتمنى أحدنا أن يخلقه الله شجرة مثمرة، يكون كله عطاء الى الأنسان والى الحيوان، حيث يأكلون، ويستظلون، ويحتطبون، ويسرهم منظرها، وأن تسكنها الطيور وتبني بين غصونها

أعشاشها، وتربّي صغارها حتى يكبرون، كل هذا من دون أيّة منّة، ومن دون أي ثمن، ومن دون أيّة مضايقة أو تململ! ..

ـ ماذا يعني أن يكون المرء كتلة من العطاء والبذل والتضحية والإيثار من دون أي مقابل أو منفعة ؟

يعني يا (زمن) أنه يمتلك روحاً نقية صادقة مؤمنة .. سمعته في إحدى جلساته وهو يدعو الناس إلى الزهد: سمعت حبيبي وخليلي رسول الله يقول: والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصُعدات تجأرون إلى الله، والله لو أن الله خلقني يوم خلقني شجرة تُعضد وتُؤكل .. هكذا كان رده على طلب بعض من رفاقه المسلمين، أن يتمتع بالحياة، وأن يسكن سكنا مناسبا، وأن يلبس لباسا راقيا، وأن يتزوج النساء، فيما هو يبصرهم بما يريده الله من المؤمن من زهد، وعبادة، وخوف الله، وعظمته، وعظمة الثواب للمتقين، وشدة العقاب للعاصين. ما أعظمك وما أقوى إيمانك، وما أعلمك إيها الغفاري الجليل!

عندما طالبه بعض المسلمين أن يتزوج بأمرأة جميلة، بدلاً عن (أم ذر) التي لم يرزق منها بولد بعد أن مات ولده، وموت ابنته. فقالوا: يا أبا ذر، إنك أمرؤ ما تكاد يبقى لك ولد. فقال: وإنّا نحمد الله الذي يأخذهم منا في دار الفناء ويدخر لنا في دار البقاء، فقال: يا أبا ذر لو اتخذت بساطا هو

ألين من بساطك هذا؟ فأجابه الغفاري: اللهم غفراً، إنَّما خُلقنا لدارٍ لها نعمل وإليها نرجع.

فأنظر يا أخي (زمن) كيف أجاب الغفاري من طالبه، أنْ لا يساوي عبده بما يلبس ولا ما يأكل، فهذا عبده وهو سيده ولا داعي أن يلبس ما يلبس ولا أن يأكل ما يأكل .. ومن خلال رفقتي لأبي ذر وجدته من أشد الناس تواضعًا، فكان يلبس ثوبًا كثوب خادمه، ويأكل مما يطعمه وهل هناك مسلم ومؤمن صادق قدوته رسول الله، وسيرته الإنسانية لا تشوبها شائبة قبل الأسلام وبعده، يتعالى على عبده أخوه في الانسانية والدين، فكان الغفاري مثلا في أتباع وصايا رسول الله، وصادقاً مع نفسه في التعامل مع الآخرين من البشر، كان يفيض كرماً ومحبة وتقديراً لمن هم تحت يده وملك يمنيه، وهو لم يُعرف بامتلاك الجواري والعبيد والإماء، وهو يتعامل معهم على قاعدة أهل البيت، يشتري من يتمكن من شرائه ويمنحه حريته.

والله يا (زمن) لم تشهد خلال وجودك مذ خلق الله الليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والرياح والمطر، والإنسان، والدواب، والطير والجبال والحجر والشجر مثل هذا النموذج الزاهد ، العابد، المتواضع، دمث الأخلاق، يحب للناس ما يحب لنفسه، لا يخشى قول الحق مهما كانت النتائج، ومهما أختلفت المناهج ..

بينما أتأمل في حديث سلمان، لاحظ حيرتي وتأملي، فسألني: ما بك يا (زمن)؟

ـ لا شيء سيدي الصحابي الجليل، إني أفكر في حديثك عن هذا الرجل العظيم.. زدنا يا سيدي سلمان من سيرة هذا الرجل النبيل.

ـ نعم سأذكر لكم يا (زمن) بعض مما بقي في الذاكرة، فأنا رجل في خريف العمر، وربما نسيت الكثير من الذكريات التي جمعتني مع حبيبي الغفاري، بيد هناك ذكريات عصيّة على النسيان .. الحديث عن زهد الغفاري يحتاج إلى متسع من الوقت للإفاضة فيه، ولكن سأذكر ما تجود به الذاكرة الآن. عهدي بالغفاري أنه لا يُبقي لديه مال يفيض عن حاجته الضرورية فقط، إذ يسعده ويأنسه القليل، ويحزنه الكثير. سمعته يحدّث الناس: ذو الدرهمين يوم القيامة أشد حساباً من ذي الدرهم. ومن صفاته التي عُرف بها أنه لا يقبل هدية من ذوي الإمرة والسلطان، سوى ما يستحقه من عطاء، وهو عطاء يؤمّن حاجته حد الكفاف ثم يوزّع المتبقي على الفقراء والمحتاجين والمعوزين من ذوي الفاقة والعُسر. فأتذكر في إحدى المرات أن أحد الولاة في الشام ولعله حبيب بن مسلمة أرسل إلى أبي ذر بثلاثمائة دينار ليستعين بها على حاجاته. فلم يقبلها، وأرجعها بيد المرسول قائلاً: ارجع بها، فما وجد أحداً أغر بالله منا، ما لنا إلا ظل نتوارى به، وثلّة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم إنّي لأتخوف الفضل ..

وهناك قصص كثيرة من ذلك، كأن سيرته كلها على هذا المنوال، فماذا أقول؟ وماذا أترك؟ وقد كانت حياته كلها على المنهج نفسه من البساطة

والتواضع وحسن السيرة والسريرة، وأشهد أنه كان يغزل ردائه بيده إن توفر له الصوف.

كان (زمن) منهمك بتدوين ما يسمعه من لسان سلمان، لئلا تفوته كلمة من ذلك، وفي تلك الأثناء خطر في باله شخصية عظيمة من شخصيات القرن العشرين لها شبه بسيرة الغفاري من حيث الزهد والتقشف ورفض الظلم:

ـ ذكّرتنا يا سيدي سلمان، برجل زاهد في عصرنا الحديث، وهو العصر الذي جاء بعد عصركم بأربعة عشر قرناً، اسمه غاندي، قاد ثورة سلمية لتحرير بلاده الهند من سيطرة المستعمر البريطاني، وأصبح مثار إعجاب العالَم لزهده وتواضعه وبساطته، في ملبسه مأكله ومسكنه، ولا يرتدي سوى قطعة ملابس واحدة تستر نصف جسده. ولعله اطلع على سيرة الغفاري فجذبته تلك السيرة الثرّة .. زدنا يا سيدي سلمان، زدنا بالله عليك بالمزيد عن زهد الغفاري وسيرته.

ـ يا أخي (زمن) أنا لا أعرف غاندي هذا الذي تتحدث عنه، ولم أسمع به، أما سيرة الغفاري رفيق الدرب في طريق الإسلام، وحبيب الروح والأقرب إلي نفسي من صحابة الرسول، فهي حافلة بالكثير من المواقف والحوادث والقصص، وهو الذي تمسّك بآية العفو والعمل بها طيلة حياته، أنْ يكتفي الانسان بقوت يومه، ويكتفي بردائين واحد للعمل وآخر للصلاة. رآه أحد أصحابه يوما يلبس جلباباً قديماً فسأله: أليس لك ثوب غير هذا؟

لقد رأيت معك منذ أيام ثوبين جديدين. فأجابه الغفاري: يا بن أخي، لقد أعطيتهما لمن هو أحوج إليهما مني.

ـ ولكنك يا شيخ أنت المحتاج إليهما!

ـ اللهم غفرانك .. إنَّك لمعظّم للدنيا, ألست ترى عليّ هذه البردة؟ ولي أخرى لصلاة الجمعة, ولي عنزة أحلبها, وأتان أركبها, فأي نعمة أفضل ما نحن فيه؟

وللغفاري يا أخي (زمن) صفات أخرى، فهو كان محارباً صلباً لا يهدأ ولا يتهاون في محاربة الإدخار والكنز، فقد كان أثرياء القوم يفرّون من أمامه حينما يرونه، خوفاً من لسانه، فهو طالما يُذكّرهم بعذاب الله، للذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله، وكان المترفون يفرّون منه حين يلاقونه في الطريق، لعلمهم أنه سوف يتعرّض لهم بالتنديد والنقد القاسي لميلهم للإستئثار والإكتناز وجمع الأموال والعقار فيما يُعاني السواد الأعظم من الفقر والفاقة والحرمان .. فهو لم يكتف بصيانة نفسه وأهل بيته من الكنز، بل أعتبر أن واجبه الشرعي، والإنساني بحث الناس الى عدم الكنز، وواجب مشاركة الفقراء بأموالهم، ورفع الفقر والعوز عنهم، على الرغم مما واجهه من الأذى والقهر، كما كان يترفّع عن المناصب والمكاسب وامتلاك الثروة، فهو أبعد الناس عن مصادر الثروة والمال. ويسعى بكل جهده وطاقته الى تنوير الناس بالإيمان والزهد وعدم الإدخار، وعدم السعي الى بناء القصور، قيل له مرة: ألا تتخذ ضيعة كما

اتخذ فلان وفلان ؟ قال: ما أصنع بأن أكون أميراً؟ وكل ما يكفيني في كل يوم شربة ماء أو لبن، وفي الجمعة قفيز من قمح ..

أما منزلته من رسول الله فهي معروفة لدى جميع الصحابة، فهو أقرب الناس مجلساً الى رسول الله لِما عُرف من حسن سيرته وصدق سريرته، وعدم سعيه لكسب المال والثروة..

فلذلك كان حبيبي الغفاري يفتخر ويتحدّث باعتزاز وثقة كبيرة أنه الأقرب الى رسول الله، حيث بقي على حاله وهيئته من التزامه بالعقيدة والمبدأ والإيمان والتقوى والزهد كما تركه رسول الله .. فما أعظم وأكرم هذا الرجل المؤمن الزاهد الصادق الذي عدّه رسول الله من المقربين إليه، وأحد رفقائه ووزرائه، وقد قال بحقه: لم يكن نبي إلا وقد أعطي سبعة رفقاء نجباء وزراء، وإني أعطيت أربعة عشر، فسمّاهم رسول الله بأسمائهم وفيهم الغفاري ..

ومن صفاته أنه لا يُهادن ولا يخشى أحد في النصح وقول الحق. مرّ في أحد الأيام بأبي الدرداء وهو يبني بناءً له، فقال له يؤنبه: يا أبا الدرداء، لقد أثقلت على هؤلاء العمّال وحملت الصخر على عواتقهم. فقال وهو غاضباً: يا أخي إنما هو بيتٌ أبنيه. فقال الغفاري لو مررتُ بك وأنت في عُذرة أهلكَ كان أحبَّ إليَّ ممّا رأيتك فيه ..

وقال مرّة لأحد الأثرياء وقد رآه يلبس الثياب الفاخرة وهو يختال مزهوّاً: من لبس مشهوراً من الثياب، أو ركب مشهوراً من الدواب أعرض عنه الله، وإن

كان كريماً .. ولا يرى ملامة أن يكون خصماً لمثل هؤلاء وأضرابهم ممن حليت الدنيا ومحاسنها في أعينهم، فيؤنبهم قائلاً: المترفون أعداء الأنبياء، ومن كانت خيوله ورباطه ورقيقه بألوف الألوف، وقصوره منيفة الى عنان السماء، وثيابه حلل يمانية ثمينة، وطعامة الدسم الفاخر، فليرى في أبي ذر خصماً له ..

وكان يقول لزوجته عندما تطلب منه حاجة معيشية: يا أم ذر إنَّ بين أيدينا عقبة كؤداً، وإن المُخفَّ فيها أهونُ من المُثقل ..

ومن صفاته التي عُرف بها أنه لا يقترب من ولاة السلطة، أو من عرف عنه عدم الأمانة أو الثراء وكنز المال مهما بلغت مرتبته أو لمع اسمه، فقد لقيه أبو موسى الأشعري يوماً، فلم يكد يراه حتى فتح له ذراعيه وهو يصيح من الفرح بلقائه: مرحبا أبا ذر، مرحبا بأخي. ولكن أبا ذر دفعه عنه وهو يقول: لستُ بأخيك، إنما كنتُ أخاك قبل أن تكون والياً وأميراً! ..

كما لقيه أبو هريرة في أحد الأيام، فأحتضنه مرحّباً، ولكن أبا ذر نحّاه عنه بيده وقال له: إليك عني، ألست الذي وليت الإمارة، فتطاولت في البنيان، واتخذت لك ماشية وزرعاً!

يا أخي (زمن) ما حدثتك به حول صدق الغفاري في إيمانه، وتطابق قوله وعمله، في الزهد وبساطة العيش، وجهاده في ذم الكنز والثروة، ومحاسبة الخلفاء والولاة عما أكتنزوه وبالخصوص آل أمية ومن تبعهم، حيث أسرفوا في المُلك، والإستئثار بأموال المسلمين لصالحهم وصالح

توابعهم ومؤيديهم، إنما هو قطرة من بحر هذا الصحابي الجليل حتى نال المرتبة العليا عند رسول الله، الذي قال بحقه ما قال مما ذكرته لك ومما تعرفه أنت من مطالعتك الواسعة، فأنت القلم وأنت التاريخ وأنت الشاهد. هل أذكرك بقول رسول الله فيه: أبو ذر صِدّيق هذه الأمة؟ .. هل أذكرك بقول علي بن أبي طالب فيه: ضاقت الأرض بسبعة، بهم ترزقون، وبهم تنظرون، وبهم تمطرون، منهم أبو ذر ..

واعلم يا أخي (زمن) أن حبيبي الغفاري مع شدّته في محاربة الإستئثار والإكتناز والترف والبذخ فأنه كان يهرب من الفتنة التي تؤدي إلى رفع السيف بين المسلمين. حكى لي مرّة هذا الموقف مع رسول الله وجعله درساً وشعاراً لحياته: ركب رسول الله حماراً وأردفني خلفه فقال لي: يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديدٌ لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: تعفّف يا أباذر.

ـ أرأيت إن أصاب الناس موتٌ شديدٌ يكون البيت فيه هو القبر، كيف تصنع؟

قلت: الله ورسوله أعلم. قال: اصبر يا أبا ذر.

ـ أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء. كيف تصنع؟

قلت: الله ورسوله أعلم. قال: اقعُد في بيتك واغلق عليك بابك.

قلت: فإن لم أُترك ؟

قال: فأتِ من كنت معه فكن فيهم.

قلت: فآخذ سلاحي ؟.

قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يردعك شعاع السيف فألقِ من طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك فيكون من أصحاب النار.

(زمن) يواصل كتابة ما يسمعه من ذكريات سلمان عن رفيق دربه الغفاري، وأراد أن يغيّر من بوصلة الحديث إلى اتجاه آخر، فقال لسلمان:

ـ بارك الله فيكم يا سيدي سلمان .. ولكن هناك من يرى أن أبا ذر لم يكن من المبشرين بالجنة، على الرغم من سابقته وجهاده في الإسلام، وقربه من رسول الله، ومواقفه المشرفة. وأرغب أن أذكر لكم قولاً من العصر الحديث في زماننا لأحد شيوخ الأزهر، والأزهر هو مؤسسة دينية تصدر الفتاوى في مصر، وله مقبولية عند عامة المسلمين، يقول الشيخ: (عشرات ومئات وآلاف من الصحابة، لم ترد الأخبار الصحيحة، أنَّ رسول الله بشرهم بالجنة، من هؤلاء أبو ذر الغفاري)

اتكأ سلمان على جذع الشجرة، فهو عادة ما يستظل بظل شجرة، أو بظل جدار، حيث لم يكن داره ذو سعة ليلتقي فيه الناس، ثم زفرة حسرة، ومدّ يده على لحيته المنسدلة على صدره وقال: وهل يبشر من هو بداخل

البيت بدخوله ؟ فالغفاري هو ابن الإسلام وابن الرسالة وابن الدعوة، وهو الذي أخبره رسول الله أنَّ الجنة تشتاق إليه، وهو معروف لدى أهل السموات أكثر مما هو معروف لدى أهل الأرض كما أخبر جبريل الرسول في ذلك، فالبشارة بشيء لمن لا يملكه أو لمن لا يدركه، في حين إنَّ الغفاري من أهل الجنة ولا يحتاج إلى بشارة ..

أقول يا أخي (زمن) ليغفر الله لصاحبكم هذا الشيخ الأزهري، وعليه أن يكفّر عن ذنبه، ويستغفر ربه، وأن لا يتحدث عن هوى نفسه، فإن من كان حاضراً في الحدث ليس كمن غاب عنه.

ـأحسنتم سيدي سلمان، وماذا تقول وهذا المفتي الأزهري يرى من يحارب كنز المال والذهب والفضة، منحرف عن دين الأسلام وسنة نبيه الكريم حيث يقول: (يصل بنا القول أنَّ واقع المسلمين، وهم تحت سمع رسول الله وبصره، لم يكن فيه اتجاه قط، ولا من بعد الى الحد من الثراء ما دام في إطار المبادئ الإسلامية من الكسب الحلال .. فإذا أنشق إنسان أو شعب عن هذا النظام فإنَّه يكون منشقا عن الوضع الأسلامي، وعن الإسلام ، وعن عمل الرسول، وعن الوضع الذي رسمه الله ورسوله للأمة الإسلامية، ولم يكن أبو ذر من هذا الفريق.).

- أخي الفاضل لا أدري هل أنا بحاجة الى أن أذكر لكم أو أذكركم بآية العفو، أو أذكركم بآية الكنز، طبعا لست غافلا عن آية الزكاة ونسخها للآيتين السابقتين، ولكنهما لم تحذفا لا كتابة ولا تلاوة

من القرآن الكريم بمعنى إنَّ أحكامهما ما زالت سارية، وقد خففت آية الكنز عمن استثقلهما من ارستقراطية قريش وتجارها، ولكنها لم تبطل دعوة الإسلام الى المساواة بين المسلمين، ولنا في سيرة رسول الله أسوة حسنة في تطبيق الشريعة الإسلامية وقوانينها،

فعن أنس رض الله عنه قال((لم يأكل النبي —ص- على خوان حتى مات وما أكل خبزاً مرققا حتى مات)).

- كَانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهد النَّاس في الدنيا ، وكان زهده صلى الله عليه وسلم اختيارياً ، فلو شاء لجعل الله له الجبال ذهباً ، وقد فتح الله تعالى له البلاد ، وجعل له خمس الغنائم حقاً له ، وكان له نصف مزارع خيبر ، ومع ذلك .. كان يتصدق بكل ما يأتيه من الأموال، ويبقى ينام على الأرض ، ولا يجد شيئاً يأكله.
- وعن إبن عباس رضي الله عنهما قال : (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا ، وَأَهْلُهُ لاَ يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِير
- عَن أنس بن مالك رضي الله عنه : (مَا أَكَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خُبْزًا مُرَقَّقًا ، وَلاَ شَاةً مَسْمُوطَةً حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ)
- وقالت عائشة: (إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ، ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ ، فسئلت : فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ). وعنها: (تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ)

- ولما تكلم بعض الناس على تقسيم الغنائم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا الْخُمُسَ ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ)
- وكان صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا)

أما ماكان من زهد علي أمير المؤمنين وهو أول الناس أسلاما وأقربهم الى رسول الله ،وهو كتاب الله الناطق ، وباب مدينة علم رسول الله

((ولَقَدْ وُلِّيَ النَّاسَ خَمْسَ سِنِينَ فَمَا وَضَعَ آجُرَّةً عَلَى آجُرَّةٍ ولَا لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ ولَا أَقْطَعَ قَطِيعَةً ولَا أَوْرَثَ))

وقيل ما شبع من طعام قطّ، وكان أخشن النّاس مأكلًا وملبسًا.

وقال عبد الله بن أبي رافع: دخلت إليه يوم عيد، فقدّم جرابًا مختومًا، فوجدنا فيه خبز شعير يابس مرضوضًا، فقدّم فأكلت فقلت: يا أمير المؤمنين، فكيف تختمه؟ قال: خفت هذين الولدين)الحسنين) أن يلتّاه بسمن أو زيت!!

وكان ثوبه مرقوعًا بجلد تارة وليف أخرى، ونعلاه من ليف، وكان يلبس الكرباس الغليظ، فإذا وجد كمّه طويلاً قطعه بشفرة ولم يُخطه، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتّى يبقى سدى لا لحمة له!! وكان لا يأكل اللحم إلا قليلاً ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوانات

وإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا مَا لِعَلِيٍّ ولِنَعِيمٍ يَفْنَى ولَذَّةٍ لَا تَبْقَى"

"فَوَ اللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا ولَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا ولَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا ولَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا ولَا أَخَذْتُ مِنْه إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ ولَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ

وهو القائل:- (ماجمعت ثروة ألا من بخل أو حرام)

وهو القائل:-((ما رأيت من ثروة موفورة إلا وبجانبها حق مضيع))

ومعروف عن الخليفة الاول والخليفة الثاني حياة الزهد والتقشف، واكل الخشن ولبس الخشن، وعدم الاسراف وعدم كنزهما للثروة والمال ، ومحاسبتهما لكل من يكتنز الثروة ويستأثر بها
ياأخي رعاكم الله من كل ماتقدم ترى أن رسول الله، وعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين كيف كان زاهداً لم يورث شيء ولم يلبس إلا الخشن ولايأكل إلآ الخشن ، وكذا هو الحال بالنسبة لأبي بكر الصديق ، و عمر بن الخطاب، وما خرج عن سيرتهم إلا الخليفة عثمان بن عفان .

فعلام أستند عبد الحليم محمود ليرى إنَّ من يحارب كنز الأموال والذهب والفضة ويضخم ثروته بكونه منحرف عن دين الأسلام وسيرة النبي محمد .؟؟؟

الفصل العاشر
المحطة الأخيرة

السلام عليكم أختنا في الإسلام، المجاهدة المكافحة رفيقة طريق جندب الغفاري، المؤمنة التي عاشت حياة الضنك والزهد والخوف، مع الغفاري الجليل، واجهت معه المصاعب والمصائب برباطة جأش، فلم تضجر، ولم تتوانى في خدمة بيتها وزوجها، وأطفالها، انتصرت له وانتصرت لدين الله، ورسول الله. الغفارية الشاعرة المؤمنة المؤتمنة (أم ذر) .. هل لي يا سيدتي الفاضلة أنْ أسمع منك مباشرة، ذكريات حياتك برفقة زوجك الصحابي الجليل الغفاري في الربذة ؟

التفتت إليَّ وقد سالت الدموع بغزارة على وجنتيها السمراوين، وبان ألم الذكر يعتصرها، وينكأ جرحاً لم تشفه السنين ...

عذرا سيدتي الفاضلة لا أريد أن أنكأ جرحاً أعلم إنَّه عميق، ولا أريد أنْ أزيد نيران ذكرى لا تُنسى لحبيب عزيز، ولإنسان نبيل ما زالت ذكراه الطيبة تدور على ألسنة أبناء عصرنا بعد أكثر من ١٤٠٠عام على رحيله، كأسطورة عظمى في الشجاعة والإيمان، مَن رفع راية العدالة والمساواة، الزاهد العابد الصادق، حبيب رسول الله، والناصر لعلي بن أبي طالب، فكيف بزوجه ورفقية حياته في شبابه وحتى مماته، ولا يشفع لي في ذلك إلا لأني لا أجد أقرب منك إليه لتويصف وتعريف هذه المسيرة التي كتبها التاريخ بحروف من نور، ولا أقول بحروف من ذهب لأن أبي ذر كان يحارب الذهب ..

رفعت أم ذر ذيل غطاء الرأس لتمسح دموعاً انسابت على خديها، قائلة: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنّا إليه راجعون، رحم الله جندب وأسكنه

فسيح جنانه، فهو الآن قرب حبيبه وخليله رسول الله، بمعيّة رفقائه من أهل الورع والصلاح والجهاد، الذين رفضوا الظلم والإستئثار، علي بن أبي طالب، والحسن بن علي، والحسين بن علي، وعمار بن ياسر، ومالك الأشتر، وسلمان، والمقداد، وجمع من المؤمنين الصالحين.

يا أخي في الإسلام، كان الغفاري رحيماً كريماً، لا نافر، ولا زاجر، تخلّق بخُلق الإسلام الحنيف، وخُلق حبيبه رسول الله وصحبه الطيبين، يقاسمني الرغيف، ويعطف ويحترم على الضعيف، كان زاهدا عابداً لا يخشى في الله لومة لائم، يؤثر الغير على نفسه، احتمل الفقر والنفي ولم يلن له عود، ولم تهن له عزيمة، وهو ينهى عن كنز الذهب والفضة، لا يخشى خليفة ولا والي ولا أمير ولا صاحب بأس وجاه، في تحقيق العدالة، منفذاً لأوامر الله ورسوله، ومرافقاً لابن عم رسول الله علي بن أبي طالب مثال الصادقين العابدين الزاهدين .. لا يفترق عن صحبة رسول الله إلا لأمر قاهر، أو بأمر منه، لا يمل من مجالسته أو محادثته، أو الاستئناس في خدمته، وتسعده رفقته، يحفظ كلامه، ويمتثل وصاياه.

امتثل بحكمة المؤمن لقضاء الله وقدره. عندما مات ولدنا (ذر)، نعاه رسول الله بكلمات مواساة أدخلت السلوى على قلب الغفاري رغم حزنه على فراق ولده، كما أصابه الحزن على وفاة ابنتنا في الشام، وكان يحبها كثيراً، بيد أنه لم يتقاعس أو يتوانى عن مواصلة دعوته في محاربة المستأثرين بأموال المسلمين، والتنديد بأولئك الذين يكنزون الذهب والفضة، ويتغافلون عن مساعدة الفقير والمسكين وابن السبيل. وما أن يستلم عطائه من

المال حتى يأخذ منه كفاف عيشه ثم يوزّع الباقي على المعوزين. فهو شديد الإيمان بآية العفو، وآية الكنز، فكانت هاتان الآيتان شعاره طوال حياته، يعيش الزهد ويخشى الفضلة، لم يغرّه الذهب والمال، ولم يخفه التهديد والوعيد، ولا القسوة أو النفي ..

يا أخي (زمن) والله لو تحدثت ليلاً ونهاراً لما وفيت مناقب وأوصاف أبي ذر، ونبله، أو كرمه وشجاعته وصبره، ولما أدركت علمه وزهده. قال عنه رفيقه علي بن أبي طالب وهو يصف علمه: وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه، وكان شحيحاً حريصاً على دينه، حريصاً على العلم، وكان كثير السؤال والاستفهام عن دِينه، فيعطى ويمنع، أما أنه قد مليء في وعائه حتى أمتلأ ..

أما حبه لرسول الله وأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فتشهد له المواقف الكثيرة، فلم يكن ليبايع لخليفة اجتماع السقيفة لولا أن وجد أن علي بن أبي طالب الخليفة الشرعي نفسه قد بايع منعاً للفتنة بين المسلمين .. وماذا تقول عن قوة احتماله قسوة الخليفة في يثرب والوالي في الشام؟ ، وكيف يُقبل أن يوصف الغفاري بالكذاب من قبل عثمان أو من غيره، وهو الذي وصفه رسول الله بأصدق لهجة على الأرض: ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق ذي لهجة وأوفى من أبي ذر شبيه عيسى بن مريم؟ .. وكيف يُقبل منعه من محادثة ومجالسة الناس وهو رابع من دخل الإسلام؟، فيما كان رسول الله مع عظمته وانشغاله بهموم الرسالة والدين، يبتدئ أبا ذر إذا حضر، ويتفقده إذا غاب..

كيف يُقبل أن يُمنع من تلاوة كتاب الله تعالى في آية الكنز، وآية العفو، ويُمنع التحدث بأحاديث رسول الله التي تُرغب الناس في الزهد والإيثار والتواضع؟، فيما يُغض النظر عن أولئك الذين اكتنزوا من الذهب ما يكسر بالفؤوس، ومن امتلكوا مئات العبيد والإماء، وآلاف الرؤوس من الغنم، والجمال، ابتنوا شواهق القصور، وأسرفوا في المأكل واللباس، وتعدد الزوجات ..

عانى الغفاري كثيراً من كبت غضبه، وبقاء سيفه في غمده ضد أولئك البغاة الذين انحرفوا عن دين الله ورسالة الإسلام، فارتدّوا لجاهليتهم، لولا وصايا رسول الله له بالصبر والطاعة وعدم الخروج على أولياء الأمر.

وأراد (زمن) أن يغيّر مجرى الحديث مع (أم ذر): صدقت سيدتي الجليلة، فما أجلّ وأعظم الغفاري؟ .. وأرغب أن أسأل مكوثكم في الشام، كم استغرق؟

ـ أختار الغفاري الشام أول الأمر، بعد وفاة الخليفة أبو بكر، وتولي عمر بن الخطاب الخلافة، ولكنه عاد الى المدينة حينما تولّى عثمان الخلافة بعد عمر، فأمره بالرحيل الى الشام حينما أخذ يحرّض الناس ضد ما رآه من بذخ وإسراف وإستئثار من أتباع ومواشي الخليفة، وتوزيعه المال على أبناء عمومته من بني أمية، وأطلق اليد في إكتناز المال والعقار، ولعدم أحقيته بالخلافة، مذكراً دائما بأنها لعلي بن أبي طالب، وهو الأولى بها من الجميع. فعدنا الى الشام ثانية، ومكثنا فيها طويلاً ..

ومنذ اليوم لأبي ذر في الشام ناوئ معاوية، حينما شاهد بناء قصر الخضراء الباذخ، فلم يهادنه يوماً، حتى ضاق به ذرعاً، وخوفاً أن يفسد عليه فقراء الشام وأحرارهم، ويتمرد عليه عسكره، لقوة حجّة الغفاري في الدفاع عن مبادئه وقيمه في نصرة الفقراء، والدعوة للتوزيع العادل للثروة .. وكانت لنا إقامة غيرقليلة في جبل عامل، وللغفاري حضوراً قوياً بين أهلها، الذين أحبوه كثيرا والتفوا حوله، وعن طريقه عرفوا حب أهل البيت وأحقيتهم بالخلافة، إذ كان يكرر على مسامعهم فضل علي بن أبي طالب ومناقبه وعدالته وزهده وتواضعه.

كانت رحلة جبل عامل على قصرها واحدة من أهم محطات الغفاري، ولا أظن أن أهل عامل ينسون الغفاري أو يتجاهلونه لما تركه من أثر طيب في قلوبهم ..

ـ صدق ظنك يا أختاه، فإنّ أهل جبل عامل جميعهم يتشيّعون لأهل البيت، يتمثلون سيرتهم، واستذكار فضائلهم ومناقبهم، فتلك البذرة التي بذرها الغفاري فيهم أثمرت وأصبحت دوحة وارفة الظ ِلال .. سؤالي الآخر هو: هل كنتِ مع الغفاري عندما سيّره معاوية الى المدينة، ومن ثم نفاه عثمان بن عفان الى الربذة؟

ـ لا يا أخي، لم أكن معه في هذه المسيرة الأليمة، ولكن معاوية سيّرني وألحقني به عندما علم بنفي عثمان له الى الربذة .. عندما خرجت للحاق الغفاري، كان في يدي جراب، ورآه معاوية، فأشهد الناس كأنه يبحث عن

ثغرة لينال من سيرة الغفاري وعائلته، فقال للناس: انظروا كيف يكنز الغفاري الذهب والفضة لنفسه، بينما يدعو الناس الى عدم الكنز .. فأجبته حينها: إنَّ ما في الجراب بعض دراهم لشراء ما نحتاجه من القوت، وليس فيه ذهباً ولا فضة ..

لقد عشنا يا أخي ما يقارب من السنتين، في الربذة، هذا إذا كان العيش في الربذة حياة، فهي أرض قفراء، مهجورة، صيفها هجير، وشتائها بارد زمهرير، تسكنها الأفاعي والعقارب، وترتادها الذئاب والضباع، لا تسري فيها بعض حياة إلا وقت الحج، وهي أرض موحشة، رياحها ذارية، ورمالها جارية، قليلة النبات، لا يرتادها الرعاة، ولا الحيوانات .. سكنّا خيمة مهلهلة لا تظلنا من حرّ الشمس، ولا تحفظنا من برد الشتاء، يفترش الغفاري حصيره ويأكل من الخبز شعيره، كان يقضي الليل والنهار بالصلاة والدعاء والتفكر بخلق الله وعظمته، وكثيراً ما كان يجالس الناس عند مرورهم وقت الحج، فيسألونه ويجيب، ويذكرهم بآيات الله، وسيرة رسول الله، وسيرة علي وفاطمة، وكان يوصي من يلتقي به من المسلمين: ستكون فتنة، فأتقوا الله، وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب، فأتبعوه .. لم يتخلى الغفاري عن نصرة الأحق بالخلافة علي بن أبي طالب وأهل بيت الرسالة حتى في أشد الظروف التي كان يعيشها في منفاه في الربذة، ودعوته هذه لم تكن عن تعصب، أوعاطفة فقط، وإنَّما لعلم وتبصّر، فهو العالِم البصير الحكيم، وقد شهد له بالعلم رفيقه وحبيبه علي بن أبي طالب.

نعم هو كان يكتنز أيضاً .. ولكن كنوزه العمل الصالح والعبادات للآخرة، ولم يأبه بأي ذخر للدنيا، ما كان يستجيب لمن يدعوه الى العيش اللين، والملبس الناعم، والفراش الوثير، والزاد الناعم، وكان يردد: قُوتي على عهد حبيبي رسول الله من تمر، فلست بزائد عليه حتى ألقى الله ..

وعندما سمع بقول رسول الله: الجنة تشتاق لأبي ذر، وعلي، وعمار وسلمان، والمقداد. صار يتشوّق للقاء ربه لنيل تلك الجنة التي وعده بها رسول الله ..

ـ وكيف كان حاله في الأيام التي سبقت وفاته ؟

ترقرقت عيناها بالدموع مجدداً، وزفرت بأنة مخنوقة، وبعد لحظات صمت أجابتني: ما أن حلّ شهر ربيع الثاني، حتى بدأ يعلو نعيب الغربان، ويكثر تراب الكثبان، يزداد عواء الذئاب، تختفي نجوم من السماء، ويذبل ضوء القمر، وصحة الغفاري تسوء بسرعة، ويوماً بعد يوم، حتى بلغ اليوم الثالث من الشهر، وهنت قواه، وخفت صوته، وقلّ حديثه. جلست أبكي، فسألني عن سبب بكائي، فقلت: لأنك تموت وليس عندي ثوب يسعك كفنًا، فقال: لا تبكي لذلك يا امرأة، فقد سمعت حبيبي رسول الله الصادق الامين ذات يوم، وأنا عنده في نفر من أصحابه يقول: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين .. وقد مات جميع من شهد ذلك المجلس، ولم يبق غيري، فأرجو الله أن أكون هو ذلك الرجل. راقبي الطريق لعل قافلة تمر بقربنا ..

وهذا ما حدث تماماً، بينما أنا في الطريق أُقلّب النظر هنا وهناك، إذ أقبلت من بعيد قافلة، فأخبرتهم أن يحضروا معي احتضار زوجي الغفاري صاحب رسول الله ؟ .. فترجلوا عن جيادهم، وسارعوا للاقتراب من مجلس الغفاري، وكانوا ثلّة من رجال لهم معرفة بسيرة الغفاري ومنزلته من رسول الله ، فعظم عندهم المصاب، وتحدثوا معه بحديث مواساة .. وقال لهم: لو كان عندي ثوب يسعني كفناً، ما طلبته منكم .. وإنِّي أنشدكم الله، لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً .. فتلفت القوم بعضهم الى بعض فليس من القوم أحد إلا وقد قارف من ذلك شيئاً، إلا فتى من الأنصار قال: أنا أكفنك في ردائي هذا، وفي ثوبين في عيبتي من غزل أمي حاكتهما لي. فقال له الغفاري: أنت صاحبي فكفني .. بعد لحظات حشرج أبو ذر حشرجة الموت، ولفظ النفس الأخير، فكفنه القوم .. وفي تلك الأثناء وصلت قافلة صغيرة قادمة من الكوفة فيها صاحب رسول الله عبدالله بن مسعود، وحين علم بموته بكى، واستذكر حديث رسول الله: رحمك الله يا أبا ذر، أنت والله كما قال رسول الله: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك ..

يا أخي (زمن) أنت تقول قرأت التاريخ وعاشرت العصور والأجيال السابقة واللاحقة، قل لي: هل هناك أصدق من هذا الرجل العظيم، في آخر لحظات حياته، وهو لا يريد أن يلمسه، أو يمن عليه إنسان له أية علاقة بالسلطات الحاكمة، في حين نرى أغلب الناس يتسابقون للتقرب من

المسؤول، لتجالسه، ولتصور معه، متباهين مفتخرين بعلاقتهم مع رمز من رموز السلطة وإن كانت سلطة فاسدة، فاسقة مستبدة جائرة.

أبو ذر الغفاري يريد أن يموت نقياً، تقياً ، زاهداً، عفيفاً نظيفاً لا يرجو إلا رحمة الله وجزاؤه، لا يفتخر ولا يعتز إلا بقربه من الله ومن رسول الله صادقاً مع الله ورسول الله، ومع نفسه ومبادئه، فهنيئًا لمن أقتدى بسيرته من البشر.

ـاسمحي لي أيتها السيدة العظيمة، رفيقة كفاح هذا الصحابي الجليل، أن أنحني أمام عظمته وعنفوانه وكبريائه، واسمح لي أن أقول بحقه هذه الكلمات التي جاشت في خاطري اللحظة:

السلام عليك أيها الغفاري يوم ولدت في أرض غفار، أرض الهجير، والزمهرير، يا من لبست الخشن، وزهدت بالحرير، وحرمت كنز الذهب والمال الوفير، يا من كفرت بآلهة الحجارة، وكنت مع الأبطال في الصدارة، تصول كالأسد الصهور، تدخل الرعب في قلوب الأثرياء، وتزرع الأمان في قلوب الفقراء، تسلب التخمة من بطون المتخمين لتؤمن الشبع في بطون المستضعفين، تترقب نجوم وأفلاك السماء فتدرك الخالق العظيم بفكرك الناضج الحكيم، تترقب شعاع البشارة أملاً في سيادة العدل لا طلبا للأمارة، إليه شددت الرحال فملأ قلبك نور المقال، شهدت أنْ لا إله إلا الله وتحملت الأهوال، ولم تبالِ بسيوف ولا رماح، ولا بسوء مقال نال منك. آمنت برسالة حبيبك وخليلك محمد رسول الله، وصدقت

دعوته، دعوة الحق والعدل والإنصاف، وصوت المساواة لا أسياد ولا عبيد، إنَّه دين العدل الجديد، المال بين المسلمين مشاع، فلا متخمين ولا جياع، وأمر الله ورسوله مطاع، فالنصر للعدل ولتتهاوى القلاع، فلا ثروة وافرة ولا حق مضاع، نذرت نفسك للفضيلة وحاربت الرذيلة، تمنيت خلقك شجرة مثمرة، فما أعظمك وما أعظم هذه الأثرة!، توسدت الحصيرة، وزهدت بالأفرشة الوثيرة، لك رداء والثاني للغلام، ساويته في اللباس والطعام، كنت للرسول كظله، ترتشف من بحره العلوم، متفكراً طوال الليل ترقب النجوم، مكبراً خالق الكون وممطر الغيوم، وصفك بالأصدق لهجة، وأنار قلبك بوهجه، شبّهك بزهد عيسى بن مريم، فجعل صدقك وزهدك منارة لكل من أسلم. ناصبت الكانزين العداء فلم تهن ولم تستكين، وقارعت الأمراء المتسلطين، لم تخشى في الله لومة لائم، ولم تهن لديك العزائم، لم يغريك بريق الذهب، ولم تنل منك القصور بالعُجب، لم يثنيك التهديد والوعيد، ولم تستوحش المقفر البعيد، كنت خير نصير لأمير المؤمنين ويعسوب الدين، وكان لك خير نصير وخير منارة، وأعلنتها صراحة: لا تليق لغيره الإمارة، ولم يسكتك إلا قراره، وأمر رسول الله لك بالطاعة، أغمدت سيفك هارباً من الفتنة، وامتشقت لسانك تفضح من كنز الذهب والفضة، منذراً ومحذراً من حجب عن الله قرضه، رفضت أنْ يكفّنك أمير أو وزير، فلم تهادن أعوان السلطان وأنت في الرمق الأخير، صدق فيك قول حبيبك رسول الله وقول علي، ثائراً صادقاً حتى بلغت لحدك، عشت ومت وحدك، وستبعث وحدك،

فطوبى لمن اهتدى بهديك، وطوبى لمن جاهد جهدك، وتمثّل قولك وزهدك.

أتعلم يا أباذر انَّ آل أمية أرحم بك من أهل هذا الزمان، والله لو جئت اليوم لرفض دعوتك جماعة ممن يدّعون انهم من المسلمين، سيقولون لك: أمر الذهب والفضة لا يعنينا، وهو ليس في أيدينا ولا جيوبنا ولا خزائنا، فنحن نتعامل بالدولار، فلم نخالف لك القرار، ولا نولي عن وجهك الإدبار، فأموالنا مطهرة بالزكاة، فما لنا وللفقراء والجياع، فقد أجازت لنا الحياة كنز الدولار وإمتلاك القصور والضياع، وما جمعناه ليس من بخل أو حرام، بل هو رزق من الله ساقه إلينا، والدنيا صيد وصيّاد، وعليك أن تصطاد منها كل شيء. فإن صرخت بالكنز فأمامك المحاكم .. أسرع يا جندب وعُد الى منفاك في الربذة، فزماننا غير زمانك، وهوانا ليس هواك، عُد يا جندب الى منفاك، وإلا ...

وها أنا أقولها لك صراحة يا أباذر: ليس لك بين القوم مكان، فاصبر حتى يأتي صاحب الزمان، لينهي عصر الجور والحرمان، ويسود العدل والأمان .. فإني أرى أن البشرية وأمة الأسلام اليوم في آخر الأوان كما وصف ذلك حبيبك رسول الله: إذا أقترب الزمان، كثر لبس الطبالة وكثرة التجارة، وكنز المال وعظم ربّ المال، وكثرت الفاحشة، وكانت إمارة الصبيان، وكثر النساء، وجار السلطان، وطفف المكيال والميزان، ويربي الرجل جرو كلب خير من أن يربي ولداً له، ولا يوقر كبير، ولا يرحم صغير، ويكثر

أولاد الزنا، حتى أنَّ الرجل ليغشى المرأة على قارعة الطريق، ويلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أمثلهم في ذلك الزمان المداهن ..

في مثل هذا الحال وهذه التغيّرات التي طرأت على شعوبنا العربية والإسلامية، بماذا تنصح يا أبا ذر أهل هذا الزمان؟ وبماذا تنصح المشرّدين والمقموعين والمنفيين؟ وبماذا تنصح الجياع؟ هل يستكينون وفق مقولة عدم عصيان أولي الأمر؟ أم إعلان الصرخة السلمية بوجه أهل الظلم والكنز والفساد؟ أم أن يغيّروا ما في أنفسهم امتثالاً لقوله تعالى: {إنّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بأنفُسِهم} ؟ أم إشهار سيوفهم للحصول على حقوقهم بناءً على شعارك في محاربة الفقر: (عجبت لمن لا يملك القوت لا يخرج على الناس شاهراً سيفه؟!) ، أم أن يصبروا وينتظروا حتى يأتيهم الفرج بسطوع الشمس الغائبة خلف السحاب، لتملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً؟ ..

أرحني يا أبا ذر وأجب على أسئلتي التي أبحث عن جواب لها في هذا العصر الذي اختلطت فيه الأوراق كثيراً وهجمت علينا أمواج الفتن من كل حدب وصوب فاختلط الحابل بالنابل ..

هبّت عاصفة رملية على الربذة ترنّحت معها خيمة الغفاري، وأختفى (زمن) بعد أن ملء دفاتره بما سطرّه قلمه من مذكرات الغفاري وسيرته وهو يأمل أن ينشرها لاحقاً.

المصادر والمراجع:

١- عبد الحميد جودة السحار، أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله، مكتبة مصر القاهرة.

٢- الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر- الغفاري والشيوعية، دار المعارف بمصر

٣- يحيى غالي ياسين، انتفاضة أبي ذر الغفاري — قصتها وفلسفتها- دراسة

٤- الدكتور محمود محمد علي- استاذ الفلسفة جامعة اسيوط - دراسة

٥- حلمي علي شعبان، أبو ذر الغفاري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١ ١٩٩١

٦- عبد الرسول زين الدين، أبو ذر الغفاري، منشورات قصبة الياقوت ط١ ١٤٤١

٧- منير الغضبان، أبو ذر الغفاري الزاهد المجاهد، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١ ١٩٧٠

٨- خالد أبو صالح، أبو ذر الغفاري، معالم على طريق الاتباع، دار الوطن.

٩- عبد الله السبيتي، أبو ذر الغفاري، مطبعة صور الحديثة.

١٠- أسد حيدر، الاركان الأربعة في حكومة الامام علي (ع)، دار الأندلس.

١١- مصطفى أحمد علي، دراسة الفقر وموقف الشريعة منه .

١٢- جامعة حنوب الوادي — إعداد د.حمود حامد عبد الرزاق، السياسة المالية عند أبي ذر الغفاري-سبتمبر ٢٠١١.

١٣- المجلة العلمية لقطاع كليات التجارة — العدد الثامن يناير ٢٠١١.

١٤- هادي العلوي، مدارات صوفية، تراث الثورة المشاعية في الشرق، دار المدى ط١ ١٩٩٧.

١٥- هادي العلوي، أضواء على معضلة الكنز، أقدم محاولة لتحريم الكنز في الأسلام، بغداد ١٩٦٢.

١٦-علي شريعتي، أبو ذر الغفاري، ترجمة خليل العصامي، منشورات لاوكون، ٢٠٢١.
١٧-قدري قلعجي، أبو ذر الغفاري أول ثائر في الاسلام، دار العلم للملايين، ط٣ ، بيروت ١٩٥٦.
١٨-السيد محسن الأميني، أبو ذر الغفاري.
١٩-محمد جلال كشك، أبو ذر الغفاري... والحق المر، دار الأرشاد، بيروت.
٢٠-محمد كامل حسن المحامي، عظماء الاسلام: أبو ذر الغفاري، منشورات المكتب العالمي، بيروت.
٢١-الدكتور حيدر حسنين، سلسلة حياة صحابة الإمام علي: أبو ذر الغفاري الثائر المنتفض، دراسة تاريخية موضوعية.
٢٢-كتاب نهج البلاغة .

السيرة الأدبية

حميد لفتة دخيل الحريزي
أديب وكاتب وصحفي
التولد:- ١-٧-١٩٥٣
العراق – النجف
خريج معهد الطب الفني بغداد ١٩٧٤
عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
عضو اتحاد الصحفيين العراقيين
عضو نقابة الصحفيين العراقيين
عضو مجلس الصحافة العالمي
عضو مجلس السلم والتضامن
رئيس تحرير مجلة الحرية
عضو هيئة تحرير مجلة رؤيا.
مؤسس نادي النقد الأدبي في اتحاد الأدباء والكتاب في النجف الأشرف .
عضو العديد من الاتحادات والمنظمات الأدبية والثقافية العربية.
عضو المجلس العراقي للسلام والتقدم .
عضو اتحاد النقاد العرب.

المؤلفات المطبوعة:

السرديات:

١ـ رواية ثلاثية بعنوان (محطات) من ثلاثة أجزاء، دار الفؤاد القاهرية، ٢٠١٨.
صدرت طبعتها الثانية عام ٢٠٢١ بمجلد واحد عن دار قهوة للطباعة والنشر ايران.
٢ـ مجموعة قصصية بعنوان (أرض الزعفران) من إصدارات مجلة بانقيا في إتحاد أدباء النجف.
٣ـ مجموعة قصص قصيرة وقصيرة جداً بعنوان (المصابيح العمياء) من إصدارات إتحاد أدباء النجف لعام ٢٠١٩.
٤ـ مجموعة روايات قصيرة جداً بعنوان (المقايضة، القداحة الحمراء، أرض الزعفران، المجهول) عن دار حوض الفرات، النجف – ٢٠١٩.
٥- ٥ روايات قصيرة جداً ، عن دار رؤى للطباعة والنشر ٢٠٢٤.
٦- رواية هذيان محموم القصيرة جداً، عن دار رؤى للطبتعة والنشر ٢٠٢٤
٧- رواية خياط الخزف الصيني القصيرة جداً ، نُشرت في جريدة أوروك ٢٠٢٤

٨ـرواية قصيرة بعنوان (البركان) دار رؤى للطباعة والنشر، ٢٠٢٤
٩ـرواية قصيرة جداً بعنوان (هذيان محموم) دار رؤى للطباعة والنشر، ٢٠٢٤

المجموعات الشعرية:

١٠ـمجموعة شعرية بعنوان (مشاهدات مجنون في عصر العولمة) النجف – ٢٠١٩.
١١ـمجموعة شعرية بعنوان (لا يعني) صدرت في عام ٢٠١٩.
١٢ـمجموعة شعرية بعنوان (ن .. سجاح) صدرت عن منشورات دار الورشة الثقافية، بغداد – ٢٠١٩
١٣ـ مجموعة شعرية بعنوان (من أقوال الحكيم الحافي) عن دار رؤى للطباعة والنشر، ٢٠٢١
١٤-مجموعة شعرية بعنوان (مسامير طين) دار رؤى للطباعة والنشر ٢٠٢٤

النقد:

١٥ـ كتاب (الإبداع والتجديد في روايات زيد الشهيد) عن دار رؤى للطباعة والنشر، ٢٠٢١.
١٦ـ موسوعة الرواية النجفية في ٩٠ عاماً اربعة أجزاء، دار رؤى للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٢٣.
١٧ـ(الرواية القصيرة جداً .. إضاءات نقدية) دار رؤى للطباعة والنشر، ٢٠٢٥ .

مؤلفات متنوعة:

١٨ـكتاب (الدين والسياسة) عن دار نور للطباعة والنشر في ألمانيا – ٢٠١٨.
١٩.كتاب (كشكول الحريزي) ضمّ عشرات الدراسات والمقالات المنشورة في المجلات الصحف العراقية... والعديد من المواقع الإلكترونية العراقية والعربية.
٢٠ـ كتاب (قول في الثقافة والأدب) عن دار رؤى للطباعة والنشر، ٢٠٢١.
٢١ـ كرّاس عن العمل والعمال في العراق.
٢٢ـ كتاب عن حياة وإبداعات البروفسور حكمت شبر الروائية والشعرية .
٢٣ـترجمة بعض رواياته القصيرة جدا الى اللغة الفارسية والكردية والانكليزية .

ما كُتب عنه:

٢٤ـ كتاب (الموروث الشعبي العراقي- في ثلاثية محطات للروائي حميد الحريزي) دراسة أدبية للأديب عبدالله الميالي- مطبعة حوض الفرات – النجف الاشرف ٢٠٢٠.

٢٥ـ كتاب (الفواعل غير النمطية في ثلاثية محطات) دراسة أدبية للأديب مهدي زبين – مكتبة فضاءات الفن، ٢٠٢٢ .

٢٦ـ أنجاز ٣ رسائل ماجستير لثلاثة باحثين حول المجاميع الشعرية لحميد الحريزي في عام ٢٠٢٣ .

الكتب الالكترونية

١ـ كتاب الكتروني بعنوان (تراجيديا مدنية) نقد لرواية الروائي زيد الشهيد - دار حروف منثورة المصرية.

٢ـ كتاب الكتروني بعنوان (ما لم تمسسه النار) نقد لرواية الروائي عبد الخالق الركابي – دار حروف منثورة المصرية.

٣ـ كتاب الكتروني بعنوان (رواية السقشجي) نقد لرواية الروائي علي لفتة سعيد - دار حروف منثورة المصرية.

الجوائز والتكريمات

١ـ حصوله على المرتبة الثانية للرواية القصيرة جداً في المسابقة التي أجرتها دار حروف على مستوى الوطن العربي عن روايته (ارض الزعفران) التي طبعت وأخرجت ككتاب الكتروني من قبل دار حروف.

٢ـ الفوز بالمرتبة الأولى في مسابقة القصة القصيرة جداً التي نُظمت على هامش مهرجان جعفر الخليلي في النجف في عام ٢٠١٧.

٣ـ حصوله على (وسام ووشاح التميز من الدرجة الأولى في القصة القصيرة في العالم العربي للعام ٢٠١٠) في المسابقة المقامة من قبل مجلس الصحافة العالمي.

٤ـ فوزه بمسابقة نازك الملائكة للقصة القصيرة جداً في بغداد، عام ٢٠١٢.

٥ـ اختياره أفضل شخصية لعام ٢٠٢٠ من قبل مؤسسة ألق الندى للتوعية والتثقيف.

٦ـ تكريم الكاتب من قبل منظمة أحلام الطفولة في غزة- المجلس العالمي لحقوق الطفل.

٧ـ شارك في عشرات المؤتمرات والملتقيات الأدبية والثقافية في العراق.

ـ بالإضافة إلى عشرات الدراسات والمقالات النقدية من قبل النُقاد والأدباء التي تناولت منجزه الأدبي، والتي نشرت في مختلف الصحف والمجلات العربية، وبضمنها دراسة نقدية بعنوان (السخرية في مجموعة مشاهدات مجنون في عصر العولمة بقلم الأستاذ المساعد

الدكتور رسول بلاوي من إيران نشرت في مجلة اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب جامعة الكوفة .

ـ وردت سيرته الأدبية في كتاب (موسوعة نجوم ثقافية في سماء نجفية) - للشاعر الأستاذ مهدي هادي شعلان نائب رئيس اتحاد الأدباء والكتاب في النجف ٢٠٢١.

ـ وردت سيرته الأدبية في كتاب معجم (أعلام وعلماء النجف) للأستاذ الدكتور المرحوم صباح نوري المرزوق ج١ ص٢٧٦.

ـ وردت سيرته الأدبية في كتاب (معجم كتاب القصة في النجف الأشرف ١٩٢٠- ٢٠١٠) الصادر عن القصة في النجف للقاص محمود جاسم عثمان النعيمي. ص٧٦-ص٨٥.

ـ ترجمة إلى اللغة الكردية روايته القصيرة جداً بعنوان (كاوه الاهوار)- ترجمة الدكتور جليل الزهيري وصدرت عن دار رؤى للطباعة والنشر عام ٢٠٢٢.

ـ ترجمة إلى اللغة الفارسية روايته القصيرة جداً (أرض الزعفران)- ترجمة الدكتور رسول بلاوي تحت الطباعة الآن في إيران .

-ترجمة روايته المقايضة الى اللغة الانكليزية زنشرت من قبل دار كناية في لندن.ترجمة الاديب زيد الشهيد.

ـ نال عشرات العديد الشهادات التقديرية من المواقع الأدبية والثقافية الإلكترونية.

ـ له عشرات الدراسات والمقالات والقصائد والقصص المنشورة في الصحف والمجلات العراقية بالإضافة للمواقع الإلكترونية العراقية والعربية.

ـ شهادات كثيرة بحق الشاعر والروائي والناقد حميد الحريزي من قبل أدباء وكتاب وقصاصين من داخل العراق وخارجه.

هناك مشاريع ومشاركات ونشاطات أخرى لا يسع لها المجال.

ايميل:- Hamd.hur@gmail.com

موبايل : ٠٧٧٣٦٤٦٥٥٧٣